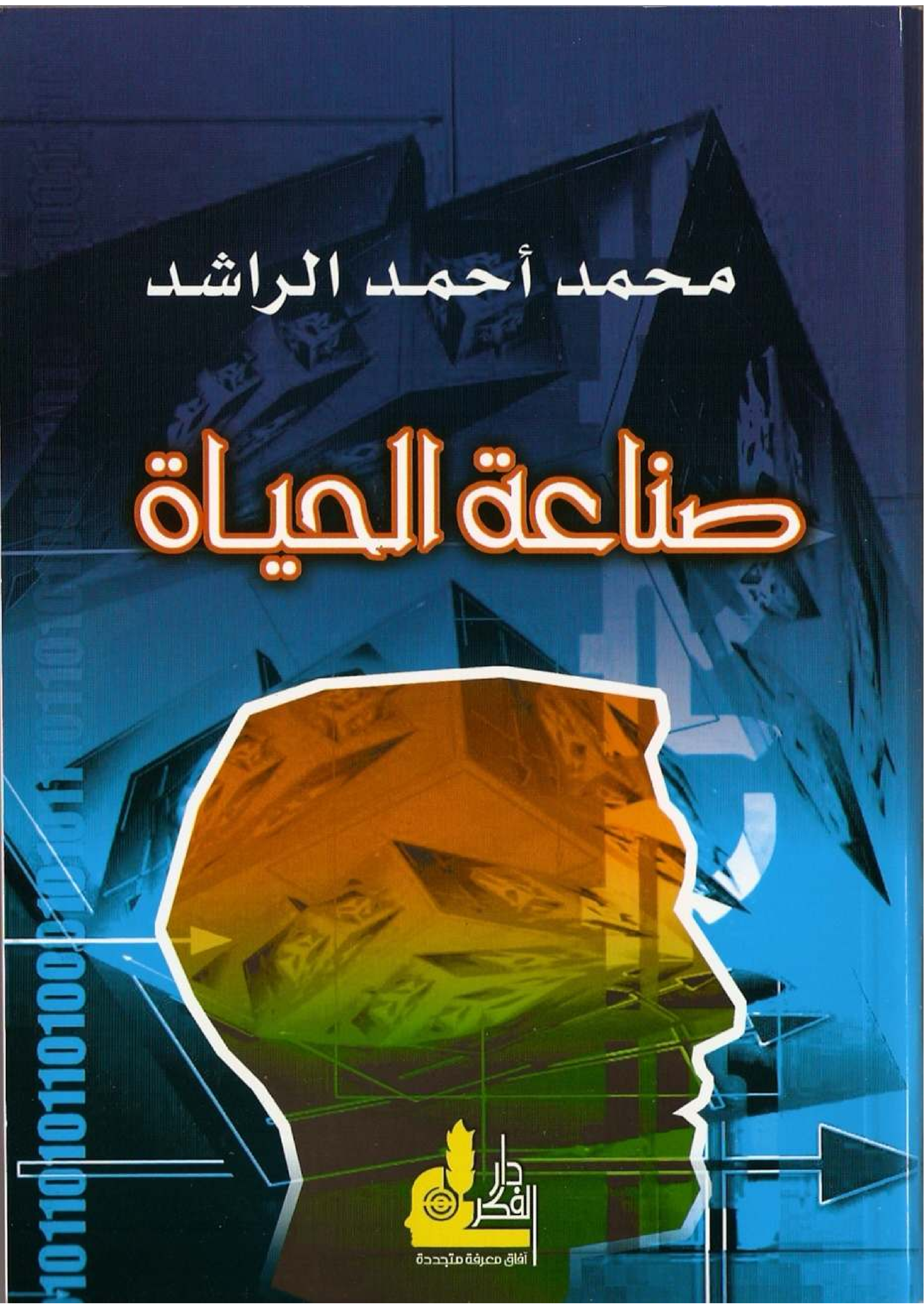

محمد أحمد الراشد
صناعة الحياة
دار الفكر
آفاق معرفة متجددة



بسم الله الرحمن الرحيم

# صناعة الحياة

صناعة الحياة/محمد أحمد الراشد.- دمشق: دار الفكر؛ ٢٠٠٤.- ١٤٧ص؛ ٢٠سم.-

١-٢١٠ ر ا ش ص ٢-العنوان

٣-الراشد

**مكتبة الأسد**

محمد أحمد الراشد

# صناعة الحياة

دار الفكر
آفاق معرفة متجدّدة




٢٠٠٨
دمشق
حاضنة اللغة العربية

دار الفكر – دمشق – برامكة



٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

---

صناعة الحياة

محمد أحمد الراشد

الرقم الاصطلاحي: ١٧٧٩,٠٣١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-303-9

التصنيف الموضوعي: ٢١٠ (الدراسات الإسلامية)

١٥٢ص، ١٤ × ٢٠ سم

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م

# المحتويات

إنه الداعية المسلم...

وَجَد نفسه محصوراً بين جدران...

واكتشف سلباً يلفه...

فانتفض.. ولم يؤمن بمفتاح بطيء....

بل كسر القفل القديم... ورماه...

ثم خطا خطوات العزم والتصميم...

فكانت نقلته قوية... لمعت ببريق الإرادة...

حتى أنها كسرت العتبة...

وخرج إلى سعة وضياء وأفق رحيب...

مع العلم والكتاب....

ويدير دولاب الحضارة....

ومضى يحدوه منهجه الإلهي....

يؤكد ذاته المتميزة.... ويصنع الحياة....

# مُقَدِّمَة

تفرض المواقع المتقدمة الجديدة التي انتقلت إليها الدعوة الإسلامية العالمية وحازتها بفضل الله تعالى وقفة تأملية على أبنائها، يتدارسون خلالها أساليب تطوير العمل، وتجويد التخطيط، ومضاعفة الآثار الحسنة لبذلهم، والاحتفال بالمنحة الربانية الكريمة التي حباهم بها جزاء صبرهم الطويل في المحن وثبات ألسنتهم وأقدامهم في مقابلة الفتن.

وشرط نجاح هذه الوقفة الفاحصة إنما يكمن في استعداد نفسي لدى الدعاة للخروج عن المألوف الموروث من الأساليب إذا أرشدت التجارب إلى ضرورة ذلك، وأدى النظر العقلي إلى اكتشاف خطأ.
وما يزال الدعاة بخير ما أذعنوا للمنطق ودفعهم الاجتهاد الحر إلى السير في دروب الإبداع والتنويع، وهم في جانب الأمان والركن القوي بإذن الله ما استجابوا لمتطلبات الظروف وكانوا على مرونة تحقق التكيف مع المستجدات والانعتاق من تقديس التخطيط القديم.

و(نظرية صناعة الحياة) دعوة لمراجعة الرصيد، والجري مع الفهم الجديد الذي بدأنا نفهم به العلاقات الحيوية وعوامل التأثير فيها وكيفية تقلبها في مجاريها ومساربها، وهي استثمار لحقائق علمية تعلمناها من بعد جهل، واستعمال لمفاد أسرار اكتشافنا عبر انفتاح اجتماعي عالمي طرأ على سلوكنا من بعد عزلة حجبتنا، كما أنها نتائج لمقدمات غرستها الطريقة المنهجية التي ارتضيناها والتي أحيينا بها سمتاً توصل له كبار علماء السلف من أمتنا وقادة السياسة فيها لم نكن نحيط بمعناه يوم كان نهلنا من مدوناتهم وسيرهم هامشياً، ثم انبغى لنا مع التعمق وطول اللبث مع كلامهم والتأمل في أفعالهم، وازداد وضوحاً باقتباسٍ من المنهجية العلمية التي توجه التطور المدني العالمي الحالي.

ولذلك، فالمظنون أن هذه النظرية البسيطة ستؤدي إلى تجديد في التخطيط الدعوي، وإلى إعادة توزيع الواجبات وتقاسم الأدوار، وإلى أساليب مستحدثة، وتفنن وابتكار، في محاولة لاختصار بقية الوقت، وتقليل الجهد، مع الدخول إلى ساحات التأثير من المداخل الطبيعية الفطرية البريئة من التكلف والتمحل، بحيث لا يشعر الناس أننا نعاملهم من موطن فوقي أو عبر حق ندعيه ونحتكره دونهم، وإنما ندعهم يحسون أننا نحمل همومهم، ونتكلم بلغاتهم، ونتجانس مع عواطفهم، وندلي بالرأي لا بلهجة الآمر، وإنما بهيئة الناصح المشير الخبير، الذي ارتاد لقومه فأطلعته الريادة على ما لا يعلمون.

على أننا سنلمس أن الاقتراحات التي سننتهي إليها لا تنافي ما عليه عمل الدعوة الإسلامية اليوم ، وإنما هي إضافة وتكميل ووضع خيارات جديدة في الاستخدام ، والأصل باق على ما هو عليه .

## - فوق التيار... وفي أعلى الذُرى -

وتسميتنا لهذه النظرية بصناعة الحياة تعني أننا ننظر إلى إدارة الحياة على أنها (صَنعة) لها فنونها الخاصة ، (وتجوّدها الخبرة المكتسبة إذا تراكمت) ، كمن يشتغل حداداً فتجب عليه الإحاطة بخصائص الحديد ، أو نجاراً فتلزمه معرفة أنواع الخشب .

فكذلك نحن ، نريد تسيير الحياة كلها في تيار واحد ، بما فيها من بشر وعلاقات وأموال وعلوم وفنون ، لنجعل هذا التيار يصب في الوادي الإسلامي ، فوجبت علينا معرفة خصائص البشر الفطرية وأسرار علاقاتهم .

ولأننا نمارس (صنعة) فإن المهارة فيها تكون واجبة .

نحن في تصرف وتغيير للموجود ، والحداد قد يطرق قطعة الحديد فيؤلمها ، من أجل أن يضيف إلى حوزة الحياة آلة منتجة ، والنجار قد ينحت الخشب ويهدر منه الكثير من أجل الجمال ، وكذلك الداعية مهندس الحياة .

لكنه صراع وتنافس ، كمثل ما في أي سوق : أيهم أسبق إلى

الشاري، إذ الكافر يفعل ما يوازي فعلنا، وينطلق أيضاً من نظرية هادفة وتخطيط، ويضع هندسة مغايرة. وحين تكون الخطة الإسلامية واسعةشاملة فإن التأثير يتعدى توجيه الجيل الواحد أواستثمارحفنة أموال ليكون تأثيراً (حضارياً) يمتد إلى أجيال ويضرب في عمق الزمن ورحابة المكان، ولذلك تحتاج نتائجه هذه إلى مقدمات تناسبها تمتد ربما إلى عشرات السنين. وكذلك الخطة الكفرية أيضاً، قد تؤدي إلى حضارة معاكسة تستولي، ويكون الكافر قد صبر على التقديم لها دهراً طويلاً.

قد نستطيع إيجاز الأمر بسؤال صيغته: كيف نمسك بزمام الحياة؟ ولعل من أبرز معاني جوابه التي ستتكفل هذه النظرية بالبرهنة عليها: أن الأمر يكون بأبعد من مجرد وصولنا إلى الحكم وتحقيق تفوق سياسي جزئي، وإنما الإمساك بزمام الحياة يستدعي نزولاً إلى الساحة بأفق حضاري شامل، فيه إصلاح للأدب، وبناء للاقتصاد، وحيازة للمال، وسيطرة على العلوم، ونفاذ إلى مراكز القوة في كل قطر على مدى عالمي.

في الحياة طاقات كثيرة ومجاميع بشرية هائلة، وجعل هؤلاء البشر يؤدون واجب العبادة لله تعالى إنما يكون حين يعرف دعاة الإسلام كيف يكون علوّهم على تيار الحياة ليمسكوا بزمامه، ومن ثم توظيفه لأداء هذه العبادة، وليس هو السير في خِضم التيار،

بحيث تتقاذفنا أمواجه وينعدم اختيارنا، كما أنه ليس السير في معاكسة التيار الهادر، بحيث يجرفنا بزخمه، وإنما هو الجري معه أو بموازاته بمستوى التفوق والعلو والاستواء.

وعلى الداعية المسلم أن يفهم هذه الطبيعة ذات البعد الحضاري لعمله وخطة دعوته، ليتهيأ لها بما يوازيها، نفساً: بالصبر، وأداءً: بالعلم، واستعانة: بالمال، ورمزاً بأطياف الجمال.

ويؤكد هذا أننا نقبل اليوم على حقبة حياتية تمثل بدء الجولة الجديدة للحضارة الإسلامية بعد قرون التخلف، ولقد كانت بلغت الأوج أولاً، ثم انحسرت تحت ضغط عوامل كثيرة، بيد أن هذه العوامل مهما تعددت لدى أهل التحليل والاستقراء فإن عامل النخر الداخلي يبقى أهمها وأظهرها تأثيراً، وهو درس يعظ صناع الحياة في جولتهم الجديدة بوجوب المبالغة في الوحدة ونبذ الفتن وأسباب الخلاف، وترتقي هذه الموعظة حتى تكون شرطاً لازماً لنجاح نظريتهم الحضارية في صناعة الحياة.

لم يكن هولاكو بطلاً في ساحة الحرب نقلته بطولته إلى التفوق بمقدار ما كان سبّاقاً إلى الاستفادة من عوامل الفوضى السياسية والترديات الأخلاقية أواخر الزمن العباسي. وكذلك في الجانب المعاكس أيام فتح القسطنطينية: أعان الجدل البيزنطي الفارغ وقلق البلاط الحاكم جيوش محمد الفاتح على الاقتحام.

ومن أصدق ما قاله مالك بن نبي: (إن قبل قصة كل استعمار هناك قصة شعب خفيف يقبل الاستخذاء)، وهو مَثَل ضربه رحمة الله يفسر ظواهر حيوية ودعوية كثيرة، وكما تبدأ تراجعات كل حضارة بالنخر لتخلي مكانها إلى حضارة منافسة، فإن الفتن هي المقدمة التي تجعل كل دعوة تُغزى في عقر دارها. وعندنا (إن هذا لم يكن) بميزان الرياضيات ابتداء فإنه يكون بميزان العقوبة الربانية، فيكل الله تعالى الدعاة إلى أنفسهم، فيعود منطق الرياضيات انتهاءً، ليس ثمة عون رباني ينصر القليل على الكثير، بل الواحد لا يساوي إلا واحداً، وتضبط الصراع الإحصاءات ومعادلات الحساب، ليس ثمة جهد تضاعفه البركة، ولا خطوة يُطوى لها الزمن.

# الولاء ناموس الكون

وأول مكونات نظرية صناعة الحياة إنما تشير لها ظاهرة الوحدة والتناسق والتماثل في سلوكيات المخلوقات وعلاقاتها. وهذه الظاهرة الحيوية تتجلى في صور كثيرة، بعضها مكشوف لكل ذي عينين يراه واضحاً في سلوك النبات والحيوان، وبعضها لا ينكشف إلا لذي علم أو ذي آلة ومختبر. ويليق للداعية هنا أن يصبر قليلاً على جولتنا معه في الرحاب العلمية، ليقرأ في سطور التخليق أحرف التخطيط.

ومن أبرز ما تظهره هذه السلوكيات المتماثلة: ظاهرة متفرعة منها يمكنني أن أسميها: (ظاهرة الولاء)، أو: التبعية، أو: الانتساب، أو: التلازم، أو ما يقارب هذه الألفاظ. وخلاصتها: دوران بعض الخلق في فلك خلق آخر مصطفى وأقوى منه، بحيث يكون هذا الأقوى مركزاً للدوران، ومحوراً، أو بؤرة تتجمع حولها مخلوقات أخرى، ويكون مؤهلاً لأسر الأضعف وربطه به ومنعه من التفلّت والاختيار.

من ذلك ما عليه بناء الكون الواسع، وبناء الذرّة: ندرسهما كمثلين غير متناهين في الكبر والصغر، وعلى طرفين متباعدين في ظن الظان، بينما يجمعهما نَسَق واحد في الحقيقة، وإذا رأينا صدق القانون الرابط لأجزائهما ووحدته سَهُل علينا من بعد تصور ما بينهما من خلق كثير لا يحصيه إلا خالقه سبحانه، يرتبط على المثال نفسه، ومن هذا الخلق: البشر.

أما الكون: فقد رأيت مدير مرصد كاليفورنيا يتحدث في برنامج تلفزيوني علمي يشرح ما اكتشفه هو وأصحابه من علماء الفلك من كيفية بناء الكون، وذكر أن صورة النجوم المتناثرة إنما هو مقدار ما تراه العين المجردة أو التلسكوبات الصغيرة، وأما المراصد الضخمة فقد أظهرت في الثلاثينيات من هذا القرن أن الكون يتألف من لَبنات مبنية بعضها فوق بعض وتحته وعن يمين ويسار ووراء وأمام، بتكرر لا ينتهي في الجهات الست، وأن اللبنة الواحدة تتكون من نجمة ضخمة قوية تكون بؤرة أو مركزاً تتجمع حولها نجوم كثيرة أضعف منها على شكل مجرة، وأطلقوا على هذه المجموعة اسم (العنقود النجمي)، وتقل كثافة النجوم المتجمعة كلما بعدت عن المركز، حتى يكون نوع فراغ، ثم تتلوه عناقيد أخرى مماثلة من جميع الجهات.

قال: وفي أواسط الثمانينيات حين تضاعفت قوة الرصد: التقطنا ألفين وستمائة صورة للسماء من جميع الزوايا، فظهر لنا أن كل

مجموعة من العناقيد النجمية تتجمع بدورها حول عنقود منها يكون أقوى من الأخريات ويعتبر مركزاً لها، ويكثف توزع العناقيد قرب هذا العنقود القوي، وتقل كثافة التوزع بالابتعاد.

قال: وسمينا ذلك (المجموعة العنقودية)، ومازال ظننا أن هذه المجاميع العنقودية هي لبنات بناء السماء، وأن الصور قد أظهرت توزعها في جهات الكون على وتيرة واحدة، في نسيج متماثل، في هندسة متناظرة، وما هي بمتناثرة، ومازال الله تعالى يخلق العناقيد في قياس موزون، ومازال الكون يتمدد، ويزيد الله في الخلق ما يشاء.

## عناصر عديدة... والولاء واحد

أما الذرة في الطرف القصي المقابل فإنها مخلوقة على المثال نفسه، وقد بدأت الميكروسكوبات الإلكترونية القوية في أواخر الثمانينيات تراها من بعد ما كنا نفهم مكوناتها من آثارها، وقد وضح بما لا يقبل الشك منذ أمد أنها تتكون من نواة قوية ذات شحنة موجبة، وأبسط أنواع الخلق هو غاز الهيدروجين الذي تكون نواته من بروتون واحد، فيأسر له جُسيماً سالباً يسمى الإلكترون يدور حوله مرتبطاً به. فإذا صار في النواة بروتونان اثنان فإن ذلك يعني أننا أمام عنصر آخر هو الهيليوم، وأسرت نواته إلكترونين مواليين يدوران في فلك تلك النواة. وهكذا خلق الله جميع العناصر من

غازات وفلزات ومعادن، كلما ازدادت النواة بروتوناً: نتج عنصر جديد يختلف في خواصه، ودارت إلكترونات حول النواة مساوية لعدد البروتونات، ويسمى ما في نواة ذرة كل عنصر من عدد هذه المخلوقات: (العدد الذري)، وقد ميّز علماء الفيزياء العدد الذري لكل العناصر، ورتبوه في ترتيبه التصاعدي وفق جدول سمّوه: (الجدول الدوري للعناصر) فالكربون مثلاً عدده الذري (٦)، والأوكسجين (٨) والألمونيوم (١٣)، والكالسيوم (٢٠)، والحديد (٢٦) والنحاس (٢٩)، والزنك (٣٠)، والفضة (٤٧)، واليود (٥٣)، والذهب (٧٩)، والزئبق (٨٠)، وحتى أنهم وضعوا كمية من الزئبق في الفرن الذري، وقذفوها بأشعة ذرية تستطيع إخراج بروتون واحد من نواة ذرة الزئبق، فكانت ذرات الزئبق تتحول تباعاً إلى ذهب، حتى تم تحويلها كلها وصارت كتلة ذهب أصلها زئبق، وهي معروضة اليوم في أحد المتاحف الأمريكية كبرهان على صدق النظرية الذرية، وهذه المعلومات يعرفها طلاب الأقسام العلمية في المدارس الثانوية، وفيها تفصيل كثير، بل أصبح العلم بها شائعاً من خلال برامج التلفزيون والصحف.

## السلوكيات البشرية تماثل السلوك الذري

إن صورتي الذرة واللبنة الكونية تفضحان بوضوح أن (الولاء) حقيقة حيوية راسخة، ولذلك يمكن إسقاطها على العلاقات البشرية

وانتظار تبعية بعض البشر لبعضهم الآخر الذين هم أنوية ومحاور، وهذا ما يظهره التاريخ الإنساني جلياً وتؤكده الحقبة الحالية التي نعيشها، ولذلك يؤذن لدعاة الإسلام أن يطلبوا لأنفسهم المكان المحوري ليحوزوا ولاء الآخرين.

هذا الاستنتاج يهمنا في تفهيم نظرية صناعة الحياة، لذلك أرى أن تُمسك به أيدينا لنقرنه بمعانٍ أخرى سنستنتجها من بعد.

ولكن إذ نحن نمشي لاكتشاف هذه المعاني الأخرى يحسن أن نتوقف عند معان فرعية كامنة في ظاهرة الولاء بين المخلوقات:

**المعنى الأول**: أن الولاء يتكرر، فالقوي الآسر لغيره يستأسر بدوره لآخر أقوى منه، وهذا واضح في أن العنقود النجمي قد انتمى مع أصحاب له إلى عنقود متميز متفوق صار بؤرة للعناقيد، وهذا هو أصل ظاهرة (القيادة) في الحياة البشرية، وأن الحائزين لولاء الناس يحتاجون آخر ينسق بينهم ويمنع التناطح والتظالم.

**المعنى الثاني**: أن ازدياد بروتونات النواة الذرية تجلب إلكترونات زائدة بعددها، كما قلنا، ولكن ما لم نقله: أن هذه الإلكترونات لها مستويات وطبقات محدودة تدور فيها، ولذلك تكون قلقة جداً إذا صار عددها أكثر من تسعين، فتخرج بأدنى سبب، وتتفلت، وكذلك الأمر في الحياة البشرية، إذا ازداد الموالون في عمليات التجميع الواسع: أصبح التفلّت أكثر حدوثاً، إذ لا يستطيع العنصر

الذي جمعهم حوله أن يمنحهم مدارات خططية كثيرة تشبع رغباتهم وتطلعاتهم، فيسيطر نوع من القلق على العلاقة، ويكون الخروج، وربما ولّد ذلك إحباطاً لدى العنصر المحوري تقل به كفاءته، إذ في الذرة يخرج بروتون من النواة في حالات القلق متزامن مع خروج الإلكترون ربما، وهذا أمر يعظنا أن يكون تجميعنا موزوناً. ولنا أن ننظر إلى هذه الظاهرة من زاوية أخرى فنقول: إن العنصر المحوري إذا ازدادت قوته العلمية وملكاته وزاد أتباعه في المرحلة الأولى فإنهم يتحلقون حوله مادامت لذة الارتباط غامرة، ثم قد لا يواكبونه في اجتهاده المتقدم وفكره الثاقب ولا يفهمونه، فيكون التفلت، وهو أمر يعظ بوجوب أن نسير بسيرة النمط الأوسط، وأن فَريَ العباقرة قد يحصل للمسلم، ولكن لا يستطيع تسويق عبقريته والعثور على متفهم لها.

**المعنى الثالث**: إن عدد الإلكترونات المأسورة يتناسب مع قوة النواة وعدد البروتونات فيها، وكذلك صانع الحياة يتبعه عدد من الناس يتناسب مع مقدار علمه وقوة ملكاته، كلما زاد ذخيرة: زاد أتباعه.

**المعنى الرابع**: إن الذرة من عنصر تتحد مع ذرة من عنصر آخر فتتكون جزيئة ذات خواص جديدة، وهذه المركبات كثيرة جداً، وعليها مدار الانتفاع في الأغذية والأدوية، حتى أن الكيمياء

العضوية لتوجد سلاسل من المركبات مستحدثة بإضافة ذرة هيدروجين أو كربون إلى التركيبة الأصلية، وتتجدد الخواص مع كل ذرة مضافة.

أقول: فهذه الظاهرة هي أصل ظاهرة الحلف في الحياة البشرية والحيوانية، حين يكون التحالف مع الشبيه والقرين والقريب، وعلى التخطيط الدعوي أن يستفيد من هذه النزعة.

## على الولاء والطاعة جميعاً

وفي أنواع المخلوقات التي تحتل الفجوة الواسعة بين الكون القصي والذرة الدقيقة شواهد فوق الحصر على ظاهرة الولاء والتبعية هذه.

فشمسنا منها، وربطت بها أرضنا والمريخ وزحل وبقية الكواكب السيارة، وهناك ملايين الشموس ذوات التوابع، ثم للأرض قمر تابع، ولبعض الكواكب أقمار عديدة.

وأسراب الطيور في هجرتها تتبع قائداً.

والحياة النظامية في خلايا النحل والنمل مشهورة، وتكتشف الرقابة العلمية لها كل يوم جديداً مدهشاً من أحوالها وتقاسمها لأدوارها.

وقد ضربنا تلك أمثلة، فانح هذا في فهم أسرار الخلق.

## دقةٌ في التعامل... وسرعة في الأداء

إن ظاهرة (الولاء) الحياتية مُردَفة ومقترنة بظاهرة أخرى ثانية يمكن أن نطلق عليها: ظاهرة (الحركة) الحيوية , وأراها كامنة في (القَدَر) الرباني. فهذه الحياة ليست ساكنة، وإنما هي سائرة. وليس سيرها هذا بالعشوائي التصادفي، وإنما هي متحركة بحركة هادفة. وهذا القدر لا يحكم مفاصل الحياة الكبرى فقط، وإنما هو مترجم بشكل (رقابة ربانية) دائمة على كل حركة وسكنة في الحياة على عدد الثواني، إذ ما تسقط من ورقة من شجرة إلا هو يعلمها، ولا يصفق طائر بجناحيه إلا بإذنه، وقد عبر السلف عن دقيق علمه تعالى ورقابته فوصفوه بأنه: (يعلم دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء).

ويُفترض في كل مسلم أن يؤمن بذلك، ولكن هناك فرق بين إيمان راسخ تؤيده شواهد عيانية يمر بها المسلم المنتبه لما يدور حوله، الرابط للأحداث بهذه الرقابة الربانية، وبين إيمان عام لا يسنده تفكر.

بعبارة أخرى: الإيمان حي، يؤثر بإذن الله، وهو باق، وفي يوميات الحياة شواهد كثيرة وقصص تدل على أن الله تعالى يُدبِّر كل حركة من المعنويات كما دبّر كل ذرة وجرم من الماديات، وحركة الحياة مراقبة موزونة، وكل حركة مُقدّرة تقديراً ولا تسير بفوضى.

والتماس دلائل هذا التوحيد وهذا النوع من الإيمان يكون بأقرب من البراهين المنطقية والطرائق الفلسفية، بل تنطق بها أحوال العبد في

الساعات التي تلي فعله للحسنة أو السيئة، كما كان بعض السلف يقول: (إني لأعرف طاعتي من معصيتي من خُلُق دابتي)، أي يأتيه الثواب أو العقاب مُعجّلاً في الساعة نفسها، غير ما يأتيه من ذلك في بقية حياته أو في الآخرة.

فلسنا ملائكة معصومين، ولا شياطين أُغلقت قلوبنا، وإنما لنا نفوس مزدوجة: ((ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها))، ولنا إيمان يزيد وينقص في مداورة دائمة.

فلو أسلف مسلم حسنة في المساء، من صدقة، أو صلاة بوقتها، أو أمر بمعروف، أو إغاثة لهفان، أو تفهيم علم، أو بذل شفاعة، أو ستر عرض، أو تخذيل عن شر، أو خلافة غازٍ مجاهد، فماذا يحدث له في الصباح؟

يستيقظ فإذا زوجه مبتسمة في وجهه، وإذا أولاده يستيقظون مع أول نداء، على أتم نظافة، وكل قد كتب واجبه المدرسي وجمع كتبه. فإذا أفطر: كان طعامه لذيذاً، وتودعه زوجه بابتسامة أيضاً. حتى إذا ركب سيارته (وهي دوابنا اليوم) وجدها سلسة تشتغل مع أول إدارة للمفتاح، ووجد الإشارات الضوئية خضراء تفتح له الطريق مُرحبة به، والسائق الذي أماه يسير وفق الأصول بأدب وهدوء، حتى شرطي المرور يرفع له يده بالتحية. فإذا دخل مكتبه الوظيفي وجده نظيفاً، وجاءه من المراجعين أهل الرفق والأخلاق. فإذا رجع: لم يجد ألذ من طعامه، وهكذا سائر يومه.

ثم لو أسلف سيئة في ليلة أخرى: من غيبة، أو بخل، أو تقاعس عن نجدة، أو تأخير صلاة، أو تنابز بالألقاب، أو منع خير، أو أذى جار، أو انتصار بالباطل لزوجه في تعاملها مع زوج صاحبه، فماذا يحدث له؟

يستيقظ فإذا زوجه ذات عبوس وتأفف، ولا يدري سبباً منه مباشراً في إغضابها، ثم من بعد قليل إذا بها تولول، ولربما فتش عن الفرد الضائع من حذاء ابنه نصف ساعة، حتى يتأخر عن دوامه المدرسي، ويكون طعامه مالحاً لا يكاد يسيغه، وتعذبه سيارته نصف ساعة أخرى كي تشتغل، وتكون كالدابة الشموس، ويجد الإشارات الضوئية حمراء في وجهه، ويُبتلى بسائق طائش عن يمينه، ثم يوقفه شرطي مرور كان قد تشاجر مع زوجه هو الآخر فيفرغ همومه فيه ويحرر له مخالفة هو منها بريء، وقد يبتلى ثالثة في مكتبه بمراجع فوضوي ملحاح يعكر عليه ويشكوه لدى الرئيس، ولربما يجد في الآخر طعام غدائه دخاناً محضاً وتكون زوجه قد نسيت القدر على النار حتى احترق، ويظل سائر يومه قلقاً كئيباً، حتى أن أقَل عقوبته أن توقظه رنة الهاتف وهو في عز نوم القيلولة، فيزعجه.

وكلنا يمر بمثل هذه الأحوال، ولكن الأقل هم الذين يرجعون بذاكرتهم إلى ما أسلفوا من حسنات أو سيئات تكون سبباً لهذه

الأحوال، والموفق هو الذي يسرع إلى بديهته هذا المعنى فيعلم موطن قدمه، فيزداد خيراً وصعوداً، أو يحذر المنزلق، ويجد في هذه المعاكسات الخفيفة اللطيفة تحذيراً يمنعه من الاسترسال في الغي وركوب الشهوات. بل هي إشارات تحذير ربانية توازي اللمم والصغائر تنبهه إلى وجوب فطم النفس عن هواها، وإلا عوقب بأكبر من ذلك، من تضييق رزق، وضياع تجارة، وجلاء بركة، ومرض متعب، وتسلط ظالم، وطلاق، وقذف عرض، وفشل في امتحان، وسفاهة جار، وبما هو أكبر من ذلك ربما.

ولهذا، فإن هذه المعاكسات هي من تمام اللطف الرباني بمؤمن يفهمها ويستوعب موعظتها، من أجل أن لا يتمادى، بل قيل: هي مداعبة من الله للعبد، يذكره أنه معه وتحت رقابته، ليستقيم.

ويشهد لهذه المعاني حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري عن النبي ﷺ: (يَعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَد، يضربُ كلَّ عُقدة: عليك ليل طويل فارقُد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عُقدة، فإن توضأ انحلّت عقدة، فإن صلّى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان).[1]

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٣ طبعة صبيح.

## النهاية يحتكرها المؤمن والمصلح والمظلوم

ومن تمام هذا الفهم لهذه الأمثلة الشخصية البسيطة في الحياة اليومية أن نفهم ما هو أكبر منها مما يجري على وتيرتها في حياة الأمم وأجيال المسلمين، فإن الموازين الإيمانية لا تقتصر صحتها على المعنى الوجداني فيها، وهو ما يسبق إلى ذهن المستعجل في فهم الإيمان، وإنما تتعداه إلى معنى التأثير الفعلي في الحياة. فمن الموازين مثلاً: أن الكاذب(لابد أن) يفتضح. وعلينا كمؤمنين أن ننتظر ساعة يفتضح فيها من يكذب ولابد، ننتظرها كما ننتظر (حدوث)أي حدث مادي، كشروق شمس أو نزول مطر إذا أغلقت السماء. ومن الموازين: ((إن الله لا يصلح عمل المفسدين)). وقريب منه ميزان: ((وأن الله لا يهدي كيد الخائنين))، وإن الخطيئة الأولى تجلب ثانية، والثانية تجلب ثالثة، عقوبة من الله، حتى يُغلق القلب ظُلمه. وبعكس هذه الموازين: التوفيق الذي يحيط المهتدي والصادق وفق ميزان: ((والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)) وأمثاله.

وكل هذه الموازين نتداولها وكأننا ننتظر الآخرة ليحيق المكر السيئ بأهله ويُثاب المؤمن، وهذا جزء من الحق، وجزؤه الآخر هو الاعتقاد بأن الحياة البشرية الدنيا محكومة بهذه الموازين جزماً، ولكن لايرى بعضهم آثارها لأنها لا تظهر دائماً بسرعة، بل قد تمتد لفترة زمنية لتظهر، فيُنسى الرابط بين الفعل والعقوبة أو الثواب. فكما أن النظرة الفلكية الأولى لم تفصح عن وجود لبنات بناء الكون

حتى توسعت الرقعة المدروسة وتضاعفت مساحة العين التلسكوبية الباصرة ، فكذلك نحتاج امتداداً زمنياً ومكانياً لتكون المادة المختبرية لبرهان صدق الموازين الإيمانية كافية ، وبدلاً أن ندرس آثارها على مدى سنوات ، ندرسها على مدى أجيال أحياناً ، مع اعتقادنا بأن العقوبة قد تأتي في اللحظة نفسها أحياناً ، مثل مئات القصص يرويها الثقات على مدى الأجيال عن شاهد زور حلف بالقرآن أمام القضاء كاذباً ، فعمي فوراً ، أو مغتاب يغتاب فيكوى لسانه بلقمة حارة فوراً وأشباه ذلك .

فدراسة آثار موازين الإيمان على فترة ممتدة وأجيال ترينا بوضوح نتائج مشخصة مرئية يؤول فيها أمر أهل الباطل إلى تراجع وأمر أهل الحق إلى تمكين ، وفي القرآن الكريم شواهد وفي كتب التاريخ ، وفي مرويات المعمّرين . ولمحمود شيت خطاب -وهو مسلم وافر الصدق- كتاب عنوانه : (عدالة السماء) يروي فيه بعض القصص مدارها على هذه الموازين حتى أن قاتلاً قتل قتيلاً ورماه في حفرة ، وبعد دهر طويل أراد رجل ثالث قتل القاتل ، فهرب منه ، وظل يركض ساعة يتنقل من مخبأ إلى مخبأ ، ثم لم يجد في النهاية ما يواريه إلا الحفرة التي رمى فيها ضحيته القديمة ، فجاء الآخر فقتله فيها وحدثني ثقة قال : إن جندياً تركياً انخزل عن وحدته يوم انسحاب الجيش العثماني من بغداد أمام ضغط الجيش البريطاني ، ووقف هذا الجندي بباب جامع أبي حنيفة ، فجاء شقي سَلَبَه ثم قتله

بظلم في وقفته بالباب، وبعد عشرين سنة تشاجر الشقي مع آخر فطعن، فهام على وجهه من حرارة الطعنة لايدري مايفعل، وظل يهرول بلا وعي مئات الأمتار، حتى وصل باب الجامع فخرَّ ميتاً في الموضع نفسه الذي قتل فيه التركي البريء. ولو أننا فتحنا مثل هذا الموضوع في مجلس المعمّرين في الحضر أو البدو، وفي بلاد العرب أو الهند أو الصين، لأقسموا لنا على صدق عشرات من مثل هذه القصص رأوها بأنفسهم رأي العين.

ومن أعجب الأمور أن العقوبة قد لا تظهر في الفاعل وإنما في ولده، لحكمة ربانية، فقد حدثني أحمد جمال الحريري رحمه الله، المطوف بمكة، قال: كلنا قد استهجن سَحلَ جثة الأمير عبد الإله صبيحة ثورة ١٤ تموز ببغداد، ولكن هل تظن أن ذلك جاء من غير مقدمة؟ قال: لقد رأيت أباه علياً صبيحة التاسع من شعبان بمكة يوم أُعلنت الثورة العربية التي قادها لورنس يصعد إلى قلعة مكة التي مازالت شاخصة حتى الآن، فأعطى الحامية العثمانية أماناً إذا سلّمت بغير قتال، فسلموا ونزلوا (بذاك) الأمان وكرهوا القتال بمكة، فأطلق سراح الجنود، وكانوا أربعمائة، ووضع الحبال في أرجل ستة عشر ضابطاً وسحلهم أتباعه وهم أحياء، والغوغاء تركض وراءهم، فماتوا بعد بضع مئات أمتار، واستمروا يسحلونهم حتى بلغوا البطحاء التي بين مكة ومنى، فعلّقوهم على الأشجار أمواتاً.

قال: وكل ذلك رأيته بعيني، وما أظن الذي حدث لعبد الإله إلا

عقوبة مثلية لتلك السيئة!! وبمقابل هذا: هل رأيت أحداً سار على سنن العدل ثم ساءت أموره؟ لم نر ذلك في فرد أو حكومة.

وانظر الظالم: سوء الذكر يلحقه حتى بعد مماته، وأولاد المُرابي أول لاعنيه.

وكم من رهط مؤمن عجز عن دفع ظلم يقع عليه، فينجيه الله ويبطش بالظالم، تصديقاً لميزان: ((إن الله يدافع عن الذين آمنوا)).

وهلاك الأمم حين يشيع المنكر وتنتشر المعاصي يشاهده المرء في المدن الخربة، ومدينة بومبي الفاسقة بجنوب إيطاليا محفوظة من يوم أهلكها بركان فيزوف قبل ألفي سنة، وقد تجوّلت بها ورأيت دِنان الخمر وصور النساء العرايا كأنها رسمت أمس.

وهل ما حدث بالكويت من هزة اقتصادية بسبب سوق المناخ بعيد عن معنى عقوبة بلدة شاع بين أهلها الربا ورضي معظمهم بيع الغرر التحايلي الذي كان بالمناخ؟

إن معيشتنا في أجواء الإعلام الرأسمالي المادي والتربية العلمانية بدأت تُنسينا هذه المعاني الإيمانية الأساسية مع الأسف، وهي من الحق الذي لا مِراء فيه وإن أنكرها الذين لا يفهمون.

## ويرزق من يشاء قرائن تخبره خبر الغد

نرجع إلى الظواهر التي ننطلق منها لفهم نظرية صناعة الحياة من

بعد كلامنا حول ظاهرتي الولاء والحركة فنقول: إن ظاهرة ثالثة تقترن بالثانية على وجه الخصوص يمكن أن نسميها: ظاهرة (السيطرة المستقبلية)، وخلاصتها: أن الله تعالى وهو مالك الملك والغيب والزمان، قد أذن لبعض خلقه أن يعلم بعض العلامات والقرائن الدالة على ما سيحدث في المستقبل، من غير جزم، إذ لايعلم الغيب إلا الله تعالى، ولكن بنوع ترجيح يقذف طمأنينة في قلب المؤمن، فيتصرف تصرفاً هادفاً متناسباً مع مايتوقعه من الأحداث، فيسيطر بذلك لا على يومه فقط من خلال إسلاف الحسنات التي تجلب له التيسير والتوفيق، وإنما على المستقبل أيضاً على مدى موسم أو سَنة أو دهر طويل، من خلال وضع هدف له والسير نحوه بتخطيط ، بإذن الله، مصارعاً القَدَر بالقدر، تأدباً مع الله تعالى عالم الغيب.

وسبل تعليم الله تعالى لعباده علم المستقبل هذا عديدة، بعضها يردف بعضاً ويكمله ويشرحه.

• منها: الرؤيا الصالحة، التي يراها المؤمن فتأتي كفلق الصبح، وهي جزء من ست وأربعين من أجزاء النبوة، كما في الحديث الصحيح، وإذا اقتربت الساعة ماتكاد رؤيا المؤمن تخطئ، وتصدق ولو بعد دهر، كصدق رؤيا يوسف عليه السلام، رآها وهو طفل، وصدقت بعد سنوات من اكتمال رجولته، وأبوه خلال ذلك يجزم بنجاة يوسف ويقول لبنيه: وأعلم من الله مالا تعلمون.

وأهل الرؤيا الصالحة لهم علامات يعرفون بها صدقها ، وليست هي كل رؤيا يرونها ، كما أخبرني بعضهم . وتُروى في أوساط المؤمنين في كل جيل آلاف القصص العجيبة الغريبة من صدق الرؤيا ، وللمؤمن أن يركن إلى بعض ما يراه ، وللمؤمنين ولأمرائهم أن يركنوا إلى رؤيا أخ لهم معروف بصدق الرؤيا إذا أخبرهم بأنه رأى علامة صدقها وإن لم يذكر لهم كُنه العلامة التي غالباً ما يفضل أن تكون سراً ، فيفعلون أمراً متناسباً مع مفاد الرؤيا ، أو يمتنعون عن فعل نووه ، مما هو داخل في نطاق التخطيط والمواقف والقرارات . وبعض الدعاة يستهجنون مثل هذا الكلام ويظنون أن ذلك ينافي ما يعلمه المؤمن من مفاد الواقع المرئي ويخالف نظريات الإدارة والسياسة والتخطيط ، وأن ذلك محض دروشة منحرفة عن الصواب . وذلك من قلة الإيمان والعياذ بالله ، ومن التأثر بالمفاهيم المادية الشائعة ، ومن تنزيل كلامنا غير منزلته التي نريدها .

فنحن نقر بأن على المؤمن أن يفهم الواقع الذي حوله ، وأن يقتبس من نظريات الإدارة والتخطيط ما شاء مما لاينافي أحكام الإسلام وآداب الإيمان ، ولكن عليه أن يضع في حسابه أيضاً مفاد الرؤيا الصالحة التي يراها أهلها . ولسنا نقول بأن يعطل المؤمن حواسه وعلومه بانتظار الرؤى ، ولكن إن كانت فإن عليه أن يسترشد بها ولا يعطلها ، وبخاصة إذا تواترت ، وما يقال عن عدم وقوع بعض الرؤى هو من تسرع من تلقف خبرها ولم يستوثق من

صدق مدعيها ، وأنا أؤمن بنظريات التخطيط ، ولكني أشعر بأن لي قلباً يشهد قبل العقل الذي يقيس .

وقبل عشرين سنة انتظر بعض الدعاة موت حاكم ظالم في يوم اثنين من شهر رجب ، لرؤيا أخبرهم بها ثقة من الدعاة قبل سنوات من تلك السنة ، فمر يوم الاثنين الأول والثاني والثالث من ذاك الرجب ولم يمت ، ولما صار مغرب الاثنين الرابع وبدأت ليلة الثلاثاء يئسوا ، فذهبوا إلى داره صاخبين منكرين عليه وهمه وتدليسه ، فأجابهم بإجابة الواثق أنه قد مات وأن الإجراءات الأمنية في دولته قد تستدعي تأجيل بث الخبر ، فزادوا نفوراً وازداد ثقة بقوله ، ثم دعاهم إلى الانتظار معه والإنصات إلى الإذاعات ، وما هي إلا سويعات وإذا بخبر الموت يذاع . وهذه القصة متواترة عن عدد كبير من الثقات لا يقبل الشك أبداً ، وكنت أسمع منه أن موته قريب ، ولكن لم أسمع يوم الاثنين وذكر رجب ، وصاحبها حي وشهودها أحياء ، وما فيهم غير ثقة .

• ومن سبل تعليم الله لعبادة أمر المستقبل : الفراسة ، وهي قابلية في المؤمن يستطيع أن يرى من خلال قسمات وجه المقابل ما يكون من نور إيماني فيه أو ظلمة الهوى والفسوق ، فيعلم بذلك صدقه من كذبه ، وطاعته أو فجوره ، ونيته في الخيانة أو الوفاء ، فيعلم دخائل النفس من علامات الظاهر .

وليس المقصود أن من تكون شفته على هيئة كذا فهو كذا، أو يكون حاجبه كذا فهو كذا، كما يتوهم بعض الماديين، وإنما هي رؤية عامة، والحديث عنها يطول وليس هذا محله، ولكن يهمنا هنا أن الفراسة كما تكون تجاه شخص تكون تجاه شعب أو جيل منه، فصاحب النظر الإيماني قد تترجح عنده الصفة الغالبة على ذاك الجيل، من شجاعة أو جبن، وهمة أو تقاعس، واستعداد للبذل أو لا أُبالية، فيوصي المتفرس بموقف دعوي يناسب ذلك.

• ومنها: الإلهام الرباني للعبد المؤمن، إذ يجد في نفسه دافعاً لفعل شيء أو الامتناع عنه، وقلبه في غاية الاطمئنان إلى ما عزم عليه. أو يقوم في نفسه في اليقظة لا في المنام أن أمراً سيقع في المستقبل، من أمر الخير أو الشر، فيسعى إليه أو يتوقاه. والملهم يعرف الخاطر الرحماني الذي يوجهه، ويميزه عن خواطر الشيطان والرجم بالغيب والوسوسة، ولا توجد علامة نتحراها، ولكن علينا أن نتقصد استشارة من نحسبهم من أفاضل المؤمنين في عصرهم أو في الجماعة، فعسى أن تكون آراؤهم فيها نصيب من الإلهام، وبخاصة إذا أصر أحدهم على رأيه أو تواطأ عدد منهم على معنى واحد.

• ومنها: حديث النفس، وهي النفس التي طالت استقامتها واعتادت الطاعة: يهجم عليها معنى لا تدري مصدره يميل بها إلى فعل أو ترك، فيهتف بالمؤمن هاتف أن فلاناً يستنجد به، فيذهب،

فيجده كذلك. أو يهتف به أن يتحول عن مكان، فيتحول، فيقع سوء في ذلك المكان ينجو منه، وماشاكل ذلك. وهناك ألوف القصص في هذا الباب.

• ومنها: الفأل الحسن، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وهو حدوث علامة طيبة مصاحبة لنيّة عمل شيء، أو مقارنة للبدء والشروع فيه، فيستبشر بذلك، ويغلب على ظنه أن الله تعالى سيتمم بخير. وأنواع هذا الفأل كثيرة، وتمييزه موهبة من الله تعالى للعبد، وهو من الرزق الحسن الذي يُرزَقه المؤمن، فيستدل بهمسة أو, تغريدة، أو هدية أو ربح لم يقتصده، أو لقاء غائب أو موافاة منتظر، أو فتح قفل أو موافقة اسم، أو نزول أمطار أو تفتح أزهار، وأشباه ذلك من الأفعال الحسنة والمناظر الجميلة، فيميل قلبه إلى السكينة، ويتأول النجاح واليسر والتسهيل. وهذه القرائن لغة قائمة بذاتها لا يفهمها إلا أهلها الذين يرزقهم الله تعالى إياها، وقاموسها ضخم، ونحوها فيه رفع ونصب وليس فيه خفض وكسر، والمبتلى بالموازين المادية هو عن هذا الذوق بمعزل، ويظن ذلك بدعة أو دروشة إذ الأمر سُنّة.

• ومنها: معرفة علامة الدعاء الذي سيستجاب، فإن اعتقادنا بإجابة الله الدعاء هو جذر الإيمان وعرقه العميق، وبعض الموفقين يعرفون علامة رجحان الاستجابة إذا الداعي دعا، من غبرة خانقة، أو شهقة مكتومة، أو نبرة صادقة، أو ذعر شديد، أو ضراعة

واطئة، أو سذاجة بريئة، أو عيّ في اللغة ممن تعرف عنه الفصاحة، في عشرات العلامات التي لاتقلّد ولاتفتعل ويمكن تمييزها من قبل مؤمنين يهبهم الله تمييزها، فيعلمون أن الله سيستجيب لابدّ، ويعرفون ماسيقع في المستقبل القريب أو البعيد، ويتخذون ذلك قرينة لهم وإشارة. وهذا المعنى متعلق بقول عمر رضي الله عنه: إني لا أحمل هَمّ الاستجابة ولكن أحمل هم الدعاء. أي يحمل هم الصدق في التوجّه وعمق التضرّع، فإنهما إن كانا، كانت الاستجابة. وهؤلاء النفر يهبهم الله تعالى تميز ذلك في الداعي، فيتوقعون أن يأتيه النصر أو الفرج على شكل من الأشكال، أو تحلّ بالمدعو عليه عقوبة بلدغة أو صدمة أو خسارة مال، والناس تنسبها إلى أفعى أو سيارة أو صافق معه بسوق أشطر منه، وهم يرون أولئك ملائكة مأمورين يؤدون دورهم في الانتصار.

• ومنها أيضاً: معرفة علامة قبول الله تعالى لتفويض العباد إياه وتوكيلهم له سبحانه في أمورهم، وهما معنيان قريبان من الدعاء ومن جنسه، وليسا هما الدعاء نفسه. وبعض الناس يهبهم الله تميز علامات صدق العبد في ذلك، فيترقبون حدثاً يناسب جلال الله وعظمته وعدله. ومن العلامات: المسكنة التي تبدو على العبد المفوّض، أو الطمأنينة التامة التي تطغى عليه إذ الخطر محدق وقريب، أو الجرأة في اقتحام الأمور وكأن الله تعالى قد أعلمه أنه حافظه وموصله، وأمثال ذلك.

فدعك ممن لا يؤمن بكل هذا ، وآمن معي . . . أخي .

فإذا اجتمعت الرؤيا الصالحة الصادقة من داعية ، مع فراسة من آخر ، مع إلهام لآخر ، مع حديث نفس عند رابع وفأل حسن : قوي المعنى الذي يذكره الأربعة قوةً تجعل الداعية قريباً من الجزم بقراءة المستقبل ، وما هو بجازم ، تأدباً مع الله ، وجاز له أن يخطط وفق قراءته .

فإذا كانوا عشرة أو أكثر : ثلاثة مؤمنين يرون ، وخمسة يتفرسون ، ومُلهم ، ومُحدّث : صار المعنى أقوى جداً ، وساغ الركون إليه . وهكذا .

## نشتق فقه الدعوة من صفات الخَلق وموازين القَدَر

فبتسخير المؤمن لظاهرتي (الولاء) و(حركة الحياة) لخدمة مقاصده الخيرية ، وبتعليم الله تعالى له سُبل (السيطرة المستقبلية) : يستطيع بإذن الله أن يصنع الحياة بالطريقة التي يؤديه إليها اجتهاده أن الله يريدها ويحبها .

علينا أن نفهم معركة الحياة الكبرى انطلاقاً من هذه الموازين الثلاثة .

هي موازين خَلَق الله عليها الخلق ، من الذرة إلى الكون الشاسع ، وأدار هذا الخلق بقَدَره إذ هو يتحرك ، من سقوط ورقة من شجر إلى دوران مجرة .

فإذن : يجب أن يكون علمنا الدعوي موزوناً بها أيضاً ، ليتم التناسق بين عملنا وعموم الكون ، وإذا لم يكن ذلك حصل تناقض .

هذا هو المبتدأ في حل الإشكال الدعوي الكبير.

إن إحلال التناسق بين موازين عملنا الدعوي وهذه الموازين والظواهر الكونية هو أصل الحقيقة القيادية التي يؤهل لها المسلم لقيادة الحياة.

إن التناسق والتناظر هما من القيم الجمالية التي أودعها الله في الكائنات، وإن الله جميل يحب الجمال، كما في الحديث الصحيح عند مسلم، وقد منح بعض حبه للجمال إلى المخلوقات لتحس بالجمال كما منح بعض رحمته والخلق بها يتراحمون، ومن تمام هذا الإحساس الجمالي أن نتكيف مع ظواهر الحياة هذه.

من هنا نشتق نظرية القيادة الإيمانية للحياة، ونعرف منهجية التربية القيادية في الدعوة الإسلامية، وكيف يكون المؤمن متصدياً لقدر الخير، ويعارك القدر بالقدر: يعارك قدر الشر بقدر خير منسوب إلى الله تعالى هو أيضاً.

إن سر معركة الحياة هو بطاعة الله سبحانه، ويفوض المؤمن أمره لله تعالى فيهديه السبيل ويمهد له الأمور ويكنس من أمامه العُتاة كما كَنَسهم يوم بُعاث قُبيل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان يوماً عصيباً سالت فيه الدماء وقتلت عتاة الأوس والخزرج، وبقي منهم عبد الله بن أبي بن سلول ليعطينا مثلاً على أن العشرات مثله كانوا سيقولون مثل قوله ويكيدون للنبي ﷺ لو لبثوا على الحياة، ولكن الله أزاحهم من

طريق المؤمنين. وكم من أحزاب جاهلية اليوم في بلاد شتى تولى الله حربها حتى ضعفت وأصبح المجال مفتوحاً أمام الدعوة في تلك البلاد لتدخل الدعوة مرحلتها المتقدمة.

لسنا كأهل بدعة القَدَر. لانقول بأننا ريشة في مهب الريح، ولانقول: مالنا وللمستقبل.

كلا، بل نريد المستقبل، ليقيننا بأن (المستقبل لهذا الدين)

فقط علينا التوكل على الله تعالى، ليؤذن لنا في الوصول. ثم علينا استثمار ظواهر الحياة هذه.

الولاء مثل نهر جار صاف، عليّ أنا المسلم أن أستفيد منه من جهة ضفتي ولا أدع مَن في الضفة الأخرى يحتكرون الاستفادة.

والحياة صنعها صانعون، فأكون أنا من صناعها، ولا ألوم القدر، ولا أستسلم.

وحقيقة إمكان السيطرة المستقبلية تجعل مصارعتنا واعية مخططة هادفة، وتجعل تغييرنا غير معتمد على ثوروية اعتباطية بل على ثوروية إيمانية عاقلة.

فبهذه النظرية الثلاثية، نصنع الحياة.

باستثمار الولاء، وبمعرفة دور القَدَر في معركة الحياة والتصدي لقدر الخير بفعل الخيرات، وبتحديد المستقبل والسعي الهادف له.

# فــريــق الـبـنــاء

وأهم انعكاسات هذه النظرية على التخطيط الدعوي الإسلامي هو انعكاس ظاهرة الولاء، والتي توجب سعي قادة المسلمين لحيازة ولاء جمهور المسلمين، من خلال تقديم منفعة مادية لهم أو جهد حضاري قابل للتراكم وإحداث أثر منه، أو سد حاجة عاطفية أو جمالية لديهم.

كل القضية تتلخص في سؤال صيغته: أنا مسلم، فلمَ لا أكون بؤرة ومحوراً ومركزاً؟ ولمَ لا أستقطب الناس حولي؟

إذا كان حجم الولاء الإيماني للمؤمنين في المجتمع مقابلاً لحجم الولاء الجاهلي (العصياني) فقد أُذنت لهم الغلبة في الصراع، بل إذا كان الثلث، إذ المؤمن منصور بقوة الله على اثنين من الكافرين على الأقل.

ليس كل المؤمنين على استعداد لتقديم الطاعة، وهي الصورة القوية من صور الولاء المضاعف، وإنما الطاعة بين صناع الحياة والبؤر لتنسيق عملهم وتنظيمه، وهي بين الرواحل المذكورين في

حديث : الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة . أما أنصاف الرواحل وأرباعها وعموم الناس فليسوا على استعداد لبذل الالتزام القاطع الحازم ، وإنما يستطيع صانع الحياة أن يحصل على ولائها له ، فتطيعه في آن دون آخر ، وتسمع لقوله إذا حَمي الوطيس وتصاعدت الحماسة ووضح التحدي جلياً ظاهراً ، وهي لا تحيا بدون ولاء لأحد أقوى منها ، جرياً مع السنة الكونية ، فإن كان المسلم أسبق وأقوى وأكثر تفنناً : دارت في فلكه وتبعته . وإن كان الفاجر أمهر وأيقظ وأفصح : سارت خلفه .

نفوس من لوازم حياتها الولاء ، ولذلك لا يصعب تحصيل الولاء منها وتكثيفه وتنميته وصقله بالتربية ليكون واعياً وأشد ارتباطاً بالعنصر القائد له .

ويبدو لي من خلال التأمل في الواقع الدعوي الإسلامي الحاضر أن نقطة الضعف فيه تتركز في أن الدعاة يلحّون في طلب الطاعة من الناس ، وذلك ممكن من طائفة منهم ، وتركوا طلب الولاء من الطائفة الأخرى ، ولعل الدعاة أن يصححوا طريقتهم ويخرجوا من عزلتهم ويتوجهوا إلى عموم الناس واثقين بهم طالبين لولائهم ، فإذا حصل الولاء في صورته المصغرة حاولوا تكبيره ، ثم يظل يتعاظم ويتراكم حتى يكون تياراً هادراً يرجح معادلة التنافس الاجتماعي لصالح الإسلام . والولاء أعم من الطاعة ، وأهم أركانه : أن يتحرى

الموالي المصالح فيجلبها لمن والاه، ويدفع عنه الضرر ما استطاع، وينصره حين الحَرَج بالقول والفعل والمال، ويحفظ سره، من دون التزام قاطع مسبق، ولكن قد يتحمس الموالي فيمنح مَن والاه في ساعة العسرة أكثر مما يمنحه المبايع المطيع.

والأمر أيسر بكثير مما يظنه صاحب النظر الخارجي الذي لايتعمق في نظره، فإن بلداً إسلامياً يبلغ (أهله) عشرين مليوناً لا يستلزم رجحان المعادلة فيه لصالح العمل الإسلامي ملايين عديدة، بمقدار النصف أو الثلث، وإنما بإلغاء عدد النساء من المعادلة يتقلص العدد إلى تسعة ملايين، إذ مازال دورهن في بلادنا الإسلامية أضعف من ضعيف.

وبإلغاء عدد الأطفال الذين هم دون سن البلوغ وكبار السن الذين اعتزلوا الحياة يتقلص العدد إلى ثلاثة ملايين. ثم بإلغاء عدد الأميين السذج في الأرياف بخاصة، وعدد الجبناء الذين يخافون الفكر والسياسة، والمرضى الذين تنهكهم همومهم: يتقلص العدد إلى أقل من مليون بكثير، وربما إلى نصف مليون، هم الذين يحملون فكراً ويقفون موقفاً سياسياً ولهم رأي وقول. فإذا حاز العمل الإسلامي نصفهم أي ربع مليون من الموالين له ترجحت المعادلة لصالحه بإذن الله، وهذا الربع مليون قد يقوده ثلاثة آلاف من صناع الحياة المهرة ليس أكثر، وبقية عدد الدعاة يساعدون هؤلاء ويخدمونهم.

إن أكثر الناس لاشغل لهم بفكر أو إصلاح ، وإنما مبدؤهم نفسي نفسي ، وأولادي أولادي ، وزوجي زوجي .

فانظر ما أسهل الأمر إذا ربّت الدعوة الآلاف الثلاثة هؤلاء .

وأنا أزعم أن كل صاحب مهنة ذي مهارة فيها ، وكل عالم في باب من أبواب العلم ، وكل فنان ، وكل ذي مركز مالي متميز : يمكنه أن يكون صانعاً للحياة ومحوراً تدور حوله أعداد كبيرة من الناس ويتحلقون في ولاء قد يتعاظم إلى طاعة ، مع العلم أن الشخص الموالي قد يتعدد التأثير عليه من عدد من صناع الحياة المؤثرين في الآن الواحد . والأمثلة المشروحة توضح ذلك .

## بركة العلم الشرعي وأثره الثقيل

• فالعالم الشرعي مثلاً هو من صناع الحياة ، الذي هو بحر ، ويفتي فتواه عن تمكن ، ويملأ الأسماع حين يقول : قال الشافعي ، وقال مالك ، ورجّح ابن تيمة كذا ، ووجدت هذا في المبسوط ، وتأيد عندي بما في المدونة ، ويشهد له حديث البخاري ، وأورد ابن حجر في فتح الباري شواهد أخرى . . .

هذا نمط العالم الذي يصنع الحياة ، وليس هو المتقلّل المكتفي بمختصر في مذهب واحد .

ورغم تفلّت الناس فإن العِرق الإيماني مازال ينبض فيهم ، ولم

يتخلوا عن الحمية الإيمانية ، ويحتاجون فتوى مثل هذا العالم في زواجهم وطلاقهم إن لم يكن في بيوعهم ، ويستطيع الماهر أن يتابع من يستفتيه أو تتصاعد حماسته بعد محاضرة يلقيها أو رسالة ينشرها ، حتى تنضج المتابعة من بعد مدة وتتحول حاجة المستفتي أو حماسة السامع إلى ولاء له ، ثم يعمق هذا الولاء على مرّ الأيام بالتوعية والتفقيه .

إن خطة الدعوة في كل قطر مكلّفة بأن تنتقي بعضاً من أنقى وأذكى منتسبيها من خريجي الكليات (الشرعية) ، وتفرغهم من ثقل الواجبات الإدارية ، وتتيح لهم سياحات إلى بلاد أخرى يجلسون فيها بين أيادي مشاهير العلماء ، وتوفر للفقير منهم أمهات المراجع ، ثم تخرجهم إلى المجتمع مفتين ومحاضرين وعاقدي ندوات وكاتبي مقالات في الصحف ومؤلفي كتب . فإذا أخرجت الدعوة في البلد الذي تعداده عشرين مليوناً عشرين من هذا النموذج من العلماء ، ووطأت لهم المنابر ، وأشاعت أفلام الفيديو والأشرطة الصوتية لدروسهم ، وانتظرتهم عشر سنوات ، فإن الواحد منهم قد ينجح في تحصيل ولاء ثلاثمائة مسلم لم يكن منهم ولاء في السابق ، كمعدل ، فهؤلاء ستة آلاف هم أول رصيدها الولائي في بنك الترجيح ترجيح المعادلة ، وإذا أذّنوا فيهم في أوقات شتى أن أيها الناس إن الموقف الصحيح في الانتخابات هو كذا ، أو أن التبرع لقضية كذا واجب ، أو أن مقاطعة الحزب العلماني المضاد هو من تمام الإيمان : فإن هؤلاء

ستكون منهم الاستجابة، فإذا بلغت الدعوة مرحلتها المتقدمة وأفتوهم بالجهاد: كان الإسراع.

وعلى موازاة الرصيد الولائي الذي يجمعه هؤلاء الدعاة العلماء يتراكم رصيد آخر من التأصيل في الجماعة هي بأمس الحاجة إليه، ينهضون به هم أيضاً، فيحفظون للدعوة أصالة الفكر وأصالة المنهج وأصالة الحوار الشوري مع الارتباط القوي بالمعاني الشرعية، ويمنعونها من تساهل وتفريط، ويعصمون أبناءها من الإفراط والغلو والتطرف.

ثم العلم خير كله، تتوزع آثاره في جميع الجوانب والاتجاهات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية، مع مافيه من رقابة صارمة على القيادة والأتباع معاً، وهي رقابة مقبولة محترمة لا يضجر منها من تتسلط عليه رغم صرامتها، لمكانة الشرع في النفوس وهيبته وبركة الانتساب إليه، وكل هذا رصيد حضاري مهم له دوره الفعال في عملية صناعة الحياة.

فانظر إلى عظم أثر دور هؤلاء العشرين لو تجردوا وتعبوا في تربية أنفسهم وأطالَوا السهر وحني الظهر. ثم انظر إلى ضَعف خطة دعوية لاتجعل في أولوياتها انتقاء هذه المجموعة وبذل أنواع المساعدة لها لإيصالها إلى مرتبة الفتوى وإمامة الناس.

• وبمواكبة العلماء: يجب أن يكون عدد من رواد الفكر الإسلامي، ومهمتهم: التعريف بخصائص الإسلام العامة ووصفه

الإجمالي، وقواعد الفقه، وتتبّع ماكان من مواقف المسلمين خلال التاريخ اقتراباً من أحكام الشرع وآداب الإيمان وابتعاداً عنهما، مع إسقاط ذلك كله على الواقع وتحليل حاضر العالم الإسلامي وتفسيره من منطلق الموازين الشرعية، ومقارنة الحلول الجاهلية بحلنا الإسلامي الشامل، وبيان عيوبها ونقصها، مع بذل عناية خاصة بمشكلات البلد الذي يعيشون فيه وقضاياه واستنباط حلول مناسبة ضمن الحل الإسلامي العام. هذه هي وظيفة رجال الفكر الإسلامي، وهم دعاة أهل تميّز وحدة ذكاء وقوة شخصية، وقد أخذت الخطة الدعوية بأيديهم فمكّنتهم من المعرفة الشمولية، وخففت عنهم بعض الواجبات الدعوية التي يمكن أن يقوم بها غيرهم، فتسنّى لهم الطواف على النوادي والجمعيات والجامعات، محاضرين ومحاورين، وكتب كل منهم رسائل عديدة راجت في القطر وتعدّته، ولم يتخلفوا عن إمداد الصحافة العامة والدعوية الخاصة بالمقالات، فكانوا بذلك من صناع الحياة وبناة الحضارة، وأمَدّوا بنك الترجيح إذا هم خمسة فقط بعشرة آلاف ولاء، ربما.

• أما الوعاظ فهم الصنف الثالث من صناع الحياة في الخطة الدعوية، وتربيتهم أسهل، لطبيعة التعميم في ثروتهم العلمية، ولذلك نفترض أن الجماعة يمكن أن تُخرج إلى المجتمع خمسين واعظاً على الأقل، في كل مدينة واعظ، مع تركّز عدد في العاصمة والمدن الكبيرة، ومهمة هؤلاء: الضرب على الوتر العاطفي،

وتحريك المشاعر، وإنهاض الهمم، وتناول حديث الجنة والنار، والموت والقبر، والزهديات، والرقائق، والقلبيات، والأخلاقيات الإيمانية، والتنقل بين الآية والحديث وأبيات الشعر وقصص السلف والصالحين، وقال الفضيل وقال الثوري • ويتضاعف أثر الواعظ بتعلمه قواعد النحو، ليكون فصيحاً، وبمطالعة كتب الأدب، ليكون ثري اللغة، وببذل تربية سلفية له، ليبرأ من الحديث الموضوع والإسرائيليات والبدع التي تكثر في أوراق الوعظ.

إن الواعظ الواحد قد يحوز ولاء الخمسمائة في المتوسط خلال عشر سنوات إذا استثمر تأثر السامعين به عبر اتصال فردي ورعاية خاصة، وبخاصة إذا وصلت أشرطة وعظه الأقاصي فأثرت فيمن لا يستطيع الجلوس بين يديه، وهذا يعني إضافة خمس وعشرين ألف ولاء إلى رصيد بنك الترجيح.

كيف يحصل إذعان الناس للواعظ؟

هي معادلة معقدة لاندري جميع أطرافها، ولكن يمكننا أن نميز أهم رقمين فيها:

**الأول**: أنه تيسير من الله تعالى، أي أن إيمان الواعظ يجعل لسانه صادقاً، فيميز الناس نبرة الصدق بإذن الله، فيتبعون، وما خرج من القلب دخل القلب، وما خرج من اللسان لا يتعدى الآذان، فالتأثير بقدرة قادر سبحانه، وكان عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس رضي

الله عنهما أسود أفطس أعمى، وفوق ذلك كان مُقعداً، ولم يمنعه ذلك أن يكون سيد التابعين بمكة وأن تملأ كتبَ التفسير والحديث والفقه أقواله.

**الثاني**: أنها فصاحة وقابلية وعلم لا يحوجه إلى تكرار المعاني، وإنما يجدد شواهده دائماً، وهذه منح من الله أيضاً يعرفها الشكور، وبعض الوعاظ يتميز على بعض، ثم الله يزيد ويبارك.

فلو أن خطة التربية لاتدع الدعاة إلى أقدارهم يواجهونها، بل تصارع القدر بالقدر، وتدفع قدر الجهل والانزواء الذي كلكل على بعضهم بقدر العلم والجرأة على مواجهة الناس وتعليم الفصاحة: إذن لاشتغل رهط من بعد بطالة، ولتحركت طاقات من بعد تعطيل، ولتقدمنا مرحلة في صناعة الحياة.

وبموازاة هذا الأثر فإن الواعظين يقومون بدور مهم داخل الجماعة وخارجها في إحلال التعادل مع آثار العقلانية الناتجة من كلام العلماء والمفكرين، ففي مباحث الفقه ومقارنات الفكريبوسة وجفاف، ولابد من ترطيب النفوس بنداوة العاطفيات التي هي بضاعة الوعاظ، ليحصل هذا التعادل، وهذا ميزان مهم في مواصفات الدعوة النموذجية، ثم هو منهج حضاري عظيم الأهمية، فيكون وجود الوعاظ من أركان بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، ويصدق عليهم وصف صناعة الحياة من هذه الجهة أيضاً، ويالها من صناعة.

## حروف ومِنظار ومِشرط

وقد استبشرنا بهذه الأمثلة الثلاثة لوضوحها، ولأنها من جنس وَلَعَنا، فهل نتفهم أيضاً دور الصناع الآخرين بمثل هذه الحماسة؟

• منهم شعراء الدعوة، ووجودهم ضرورة من الضروريات، لأن بعض الناس أهل عقلانية، ولذلك نقنعهم بالمنطق والتأصيل والقواعد والمحاكمات الفكرية، وأما السواد الأعظم فتحركهم العواطف، ولايمكن تحصيل ولائهم إلا بالمجازيات والأخيلة والسياحة في الأقاصي البعيدة للمعاني والأمثلة والاستعارات والمترادفات، وإذا كان تأثير المفكر والمفتي علمياً، فإن تأثير الشاعر أخلاقي من جهة، وهممي من جهة أخرى، يحبب للنفوس البذل، ويوجد فيها الاستعدادَ لركوب المصاعب، وبخاصة إذا نُشر شراع الدعوِة وقت هبوب الرياح، فينزل الشعراء ليضرموا حرارة التحدي ويغرسوا روح الهدم والبناء.

إن فحصاً بين شباب الدعوة عن ذوي القابلية الشعرية، والتقاط عدد منهم وتدريبهم وتشجيعهم هو من الأولويات الواجبة في الخطة الجادة، ليصفو منهم للدعوة في القطر خمسة، من بين فحل مُجيد تعلّق قصائده في أستار الكعبة، وآخر ممهد ومعين، ليضيف جميعهم خلال تسع سنوات من الترنم خمسة آلاف ولي إلى الرصيد، ثم ليرفعوا العدد إلى خمسين في السنة العاشرة يوم يهتز اللواء، فتبني أبياتهم بيوت المدينة الفاضلة.

• وكتاب القصص من صناع الحياة، وقد برع في هذا الباب اليساريون ودعاة الانحلال، وأحدهم يكفيه أن يدس في القصة جملة لتستقر في قلب البريء، فيعتقدها، ومن تراكم الجمل والكلمات عبر نشر قصصي واسع يتركب المعنى الكبير، وهذا هو شأن الشعراء أيضاً وعموم الأدباء، وقد روى محمد محمد حسين رحمه الله في كتابه عن الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي الحديث كيف تم الانحراف الضخم عن المعاني الإسلامية على هذا النمط خلال مائة سنة.

كذلك نحن، ليس شرطاً أن نقص كل قصة الإيمان في رواية واحدة، وإنما نودع المعنى بعد المعنى، وندع التراكم يحدث الثقل.

إن حملة أدبية إسلامية يجب أن ترد حملة العلم والتأصيل، وعلينا أن نفهم التكامل الحاصل بينهما وأن نترجم فهمنا إلى التزامات خططية، ولابد أن يقوم في أنفسنا المعنى التكليفي الواسع لحقيقة كوننا نروم صناعة الحياة وتجديد دماء حضارية عريقة وبناء أساس علمي شامل ذي محيط من العواطف الموزونة، ومثل هذه المهمة الجبارة لا تكفيها فورة موسمية ولا حفنة شعارات أو ترداد هتافات، وإنما هو تلقين الموازين والغرس والسقي قطرة بعد قطرة.

• والفلكي في مرصده يصنع الحياة أيضاً، وعلى الدعاة أن ينتدبوا منهم اثنين يتعلمان خارطة السماء وعلم البروج وأوصاف المجرات

وأخبار الثقوب السوداء ، والفلك علم صعب يحتاج الرياضيات المتقدمة والصبر على الرصد والنظر إلى العلياء ، ولذلك لانطمع بأكثر من اثنين ، بل حيازة الواحد إنجاز دعوي كبير ، وسيقال عنه : هذا عين من أعيان الأمة حَرِي إن قال أن يجاب ، وسيتكلم التلفزيون والجمعيات والجامعات ، وتتسابق المدارس في دعوته للكلام ، وكلهم يسمعون له وكأن على رؤوسهم الطير ، لأخباه العجيبة الغريبة ، وسيؤذن في الناس من مرصده كما يؤذن الواعظ من على منبره : أن أيها الناس آمنوا ، فيؤمن نصف المؤمن ، ويتضاعف إيمان المؤمن ، ويظل يجمع الولاء على مدى عشر سنوات حتى يزداد الرصيد سبعة آلاف ، مع تنقية للمحيط ، وأداء دور المقدمات الحضارية ، ولا تستطيع أعتى الحكومات الظالمة أن تمنعه عن اعتلاء المنصّات ، لهيبة علم الفلك في نفوس الناس ولذته .

• وينتسب إلى الصفوف مئات الأطباء ، ولكن خمسين منهم يمكن أن يكونوا من صناع الحياة حقاً ، وهم الذين تخصصوا بجراحة القلب والدماغ والعمليات الصعبة ونالوا أعلى الشهادات في ذلك ، والذين تخصصوا بعلاج السرطان والطب النفسي ، وماوازى ذلك ، فإن الجرّاح يجري ألف عملية خلال عشر سنوات ، على الأقل ، ومع كل عملية يشكره أبناء المريض وأشقاؤه وأصدقاؤه وجيرانه ، فإذا كان نبهاً : انتقى منهم عشرة فوطد بهم علاقته من مركز القوة ، ويظل يتصل بهم تلفونياً وبالمراسلة ، ويبارك لهم أعيادهم ، ويعزيهم

عند المصائب، ويرسل لهم الكتب والأشرطة، وهو (خلال) كل ذلك يؤذن فيهم أن آمنوا، وأن الإسلام حق، وأن رجال الإسلام أخيار، وتعاونه سكرتارية نشطة في ذلك وتقوم بتذكيره، فيحصل بذلك على ولاء واحد على الأقل منهم حتى لو أهدرنا التسعة، أي يقدم للدعوة ألف ولي خلال حياته الطبية، أي تحوز الدعوة خمسين ألفاً عبر أذان الأطباء الخمسين من صناع الحياة، وهذه ثروة عظيمة تضاف إلى رصيد مصرفنا أعظم بها، بل بنصفها، بل بربعها.

## صفحات الجمال تُهدي نَفَحات الاجتهاد

• والمهندس المعماري من أهم صناع الحياة، فإن بعض عجيبة النحل يكمن في سداسياتها، ونصف جمال الحياة بين جناحي فراشة.

إن حس الجمال رزق من الله وزعه على المخلوقات من بعض ما عنده من جمال وحب للجمال، كما وزع بعض الرحمة التي عنده.

فجمال الزهور الجميلة من مقدمات تلقيحها، وجمال الديك والطاووس إنما كان لأن عملية البيض والحضن صعبة تأباها الأنثى لولا جاذبية الجمال.

وقد سخّر الله تعالى بإذنه بعض الناس أن يكونوا صناعاً للجمال، والمعماري منهم، فهو يبني النفوس والأذواق وجيّد الطباع بمبادئ التناظر والتعادل والتناسق والتدرج والتناسب.

المدينة الجميلة جزء من الحياة، ولذلك حين يقول المعماريون المؤمنون بعد أن يساهموا في بنائها أن: أيها الناس آمنوا: سيؤمن منهم عدد، وألف ضعف ذلك العدد تكون نفسه قد تعادلت وأنكرت الشذوذ واقتربت من الإيمان، بإيحاءات الجمال التي صاغها المهندسون.

يؤذنون من على عروشهم المعمارية في آن واحد مع المؤذنين من على منابر المساجد.

إن جانباً من محنة الناس يكمن في فساد الأذواق وانحراف الطباع، ولا يقبل الكفر إلا صاحب نفس معكوسة منكوسة وسوي النفس أقرب إلى الإيمان، وبحق رصد عباس محمود العقاد انتساب أصحاب الانحرافات إلى الشيوعية حتى وصفها بأنها مذهب ذوي العاهات.

إن المعماري قرين الواعظ في تسوية النفوس.

هي فلسفة في الحياة. . . . . لكن اسمها جدار ورواق.

وفلسفة في القيم. . . . . . لكن يلقبونها باباً وباحة.

وحشد من المعاني. . . . مترجم بأقواس وأعمدة وأخشاب نافرة.

وحاجة الدعوة إلى رهط من المعماريين يشاركون في تعليم الدعاة والمؤمنين موازين الجمال هي من جنس حاجتها إلى علماء يعلمونهم

موازين المُزني وشوافع الشافعي ومِلاك مصالح مالك، ولو فوّض الأمر إليّ لدفعت ربع أذكياء شَباب الدعوة إلى دراسة فنون العمارة، ولأدخلت ذلك في الخطة وجعلته حتماً واجباً، فإن تعادل العقلانية والعاطفية في الأداء الدعوي يلزمه الاقتران بالمعايير الجمالية، ليتم بهذه الثلاث استواء الصناعة الحيوية، ومن الخطأ أن نفهم أن الدَور المعماري يلزمه التعقيد والبذخ والتعاظم والإسراف والتطاول والتبذير والتكلف ليؤدي وظيفته، وإنما يؤديه من خلال البساطة والتواضع ومجانسة البيئة والجري مع الفطرة واستعمال المواد الخام غير المصنعة وبدأ الجيل الجديد من المعماريين يعود إلى هذه المعاني الأصيلة، ولعل أثر جماعة المعماريين المؤمنين في التربية الدعوية هو الجزء الناقص فيها المكمل لآثار الحَسَن البصري والجنيد.

إن مدينتنا الفاضلة كما تبنيها أبيات الشعراء وتضع قوانينها طوائف الفقهاء، فإنها تتلألأ بلمسات فنون العمارة، لتكون وحدة واحدة متجانسة بمادتها ومعانيها.

وقد كانت إنجازات السلف أيام الازدهار الحضاري كذلك.

فاس المغربية وحدة واحدة كلها، وكلها مُصانة الآن محفوظة من الهدم والتغيير بإشراف الأمم المتحدة، وهي كتلة معمارية كلها، ومَعلَم من مَعالم الإنسانية حين تنضج ويسمو ذوقها.

وقصر الحمراء ومقترباته وأركان غرناطة كتلة مندمجة.

ومدارس بغداد وخاناتها وبقايا سورها ومساجدها وأزقتها ومستنصريتها علاقات جمالية مؤداة على نسق، بعضها من بعض.

وصنعاء لوحة فنية واحدة، وكذا دمشق والقاهرة، والقيروان وتلمسان، وبخارى وسمرقند، وأصفهان واستانبول.

ولهذا فإن سواء أنفس أجيال المسلمين بالأمس هو من تأثير هذه المعطيات الحضارية الفنية كما هو تأثير الإيمان.

وجزء من محنة عواصم النفط اليوم يكمن في الفوضى المعمارية التي عكّرت النفوس حين لم يستخدم المال في منهجية معمارية واحدة متناسقة متناسبة، وإنما استوردت مذاهب المهندسين استيراداً عشوائياً، فصار التناقض المزري، وتوترت القلوب حتى افتقدنا السكينة.

ولهذا فإن أدوار كبار المهندسين الذين يصرون على مواصلة الارتباط بالتراث وتوحيد المستقى، مثل حسن فتحي بمصر، وقد تجاوز الثمانين، ومحمد مكية ورفعت الجادرجي وأمثالها بالعراق: هي أدوار بطولية، وهي أدوار إسلامية إيمانية وإن لم يفهم بعضهم كل قصة الحياة ولبث يتوهم العلمانية، لغلبة أثر المنشأ وبقية التقليد لموجة المراهقة الفكرية التي عمّت العالم الإسلامي بين الحربين العالميتين على وجه الخصوص.

واليوم يسير المعماري أحمد الرستماني وفريقه بمكتب التراث في دبي بخطى ثابتة ويمضي قُدُماً في استلهام التراث حقاً.

إن الناس إذا عرفت مقاييس الجمال فليس أجمل من الإيمان والأخلاق والمعروف، ولذلك فإن على خطة الدعوة في كل بلد أن تدفع مائة لدراسة العمارة، ليبنغ منهم عشرة ويصلوا إلى درجة الإبداع والاجتهاد وجودة العطاء فيكون هؤلاء العشرة من صناع الحياة، بمشاركتهم في تحسين المحيط وترويض الأذواق، وباللبنات الحضارية التي يُرسونها في أساس النهضة الإسلامية المستأنفة، وبألوف أهل الولاء الذين يضيفونهم إلى رصيد مصرف الترجيح.

بل المتأهل يذهب إلى أبعد من هذا، ويجد في الموازين المعمارية مادة لتعميق الوعي التنظيمي والتربوي وإتقان فقه الدعوة.

• ففكرة المركزية التي يضجر منها بعضهم إنما هي حقيقة حيوية ومعمارية تعظ الداعية بأن الأمر نسبي، وأنه ليس من الصواب إطلاق تفضيل اللامركزية الإدارية والاستطراد فيها، بل في المركزية قوام الأداء، وهي فرع من حقيقة الولاء، ومَثَلها المعماري ما يكون من شُخوص قبة مسجد مثلاً، فكأنها جمعت ما في البيئة المحيطة وربطته بأنساب القربى معها، ولخّصت وركزت ما هنالك حولها، فلا تكون في الساحة والعرصة الواسعة أشكال معمارية متسيبة متروكة عائمة، بل هي مربوطة بعلاقة محورها القبة، ثم يكون محراب المسجد عاكساً لمعاني مركزية داخلية أخرى مكملة، من ارتباط الجوانب والأعمدة والنوافذ به كمركز، فتتولد عندنا إيحاءات

مضاعفة من وجود مركزية داخل مركزية تؤلف جانباً من الأنماط الحيوية الصحيحة، بدليل حلول التجانس فيها وقبول النفس لها، وهو معنى يعظ الضَجر من مركزية الأعمال ويناديه أن لاسَلبَ في ذلك، وإنما ثَمّ نور على نور.

• وفي العمارة أفكار أساسية كثيرة، مثل المحورية، وهي عكس المركزية اللامّة الجامعة الساعية إلى تكثيف المعنى أي هي النشر والتوزيع المنتظم الذي يُبقي الشيء في ابتعاده واستقلاله مرتبطاً بعلاقة لاتدعه يتفلت أو ينفرد أو يطيش. ولهذا المبدأ تطبيق تربوي أيضاً، بل وجود المحورية المعمارية يطبع في لاشعور الناظر معناها من خلال النظر المسترسل البريء. كذلك فكرة التنوير المتكافئ، وفكرة انتقال الوظائف الفرعية بين أجزاء المبنى وتبادلها بسلاسة ويُسر وتكاملها في أداء الوظيفة الكبيرة هي فكرة معمارية عظيمة الأثر في الفكر التنظيمي، والاعتياد على استعمال الفرد لمبنى على هذه الهيئة من سهولة النفاذ والحركة وجزالة الاستفادة من كل زاوية ودهليز وباحة هو في نفس الوقت تربية له على تجويد تخطيطاته التنظيمية الإدارية في اتجاه التكامل الوظيفي وتوفير الجهد المبذول، ومجمع الوزارات بالكويت هو نموذج جيد لذلك، وهو مدرسة تربي أهل الكويت على هذه المعاني وهم لا يشعرون ويسعنا أن نطور وعينا الحيوي بأن نعيش سويعات مع رواية المعماريين لتجاربهم، وقد عشت ساعة مع المعماري الإيطالي الصاعد (بيانو) عبر حلقة

تلفزيونية ، وكان يتكلم من شقته التراثية في أزقة جنوا القديمة وكأنه يملك كل إيطاليا .

وعشت أيضاً مع المعماري العراقي رفعت الجادرجي في كتابه (بين شارع طه وهمرسمث) الذي أودع فيه جانباً من فلسفته المعمارية وروى معها خبر غيره .

وشارع طه ببغداد حيث يقع بيت أبيه الذي هو أحد قادة السياسة العلمانية في العراق ، وهمرسمث هي الكلية المعمارية التي درس فيها بلندن .

• فهو يدعو إلى ضرورة تمثّل العمارة بمُنشأة مادية يستخدمها الجمهور من أجل أن ينتشر الوعي المعماري ، وهذا كلام صائب ، يشبه تمثل الإيمان والفكر بأشخاص قدوات يخالطون الناس ، لتنتشر عدوى الخير .

• وهو يعتبر المرونة في الحركة في المنشأة : التجسيد الكامل للفكر المعماري ، بل هذا من أول مفاهيم العمارة بعد مفهومها الجمالي ، وهو مفهوم أساسي في التخطيط الإسلامي كذلك .

• ويرى أن كل عمل معماري يؤثر فيه عاملان : الشكل القديم المتوارث المتاح والإبداع الفردي التطويري . وهذا ميزان في العمل الإسلامي أيضاً ، فالتربية على فهم الأصالة والتدرب على التأصيل والسلفية من أهم وظائف المنهج التربوي ، ولكننا نجعل الشورى

محركاً للإبداع والاجتهاد ونبذ التقليد الجزاف، فيبقى أحدنا مشدوداً أبداً إلى الثوابت، ويتجول في الوقت نفسه في ساحات المتغيرات.

وعنده أن تقويم صنعاء غير تقويم روما، إذ لابد من ملاحظة أثر التطور الاجتماعي والتقني ونوع المفهوم العاطفي والمناخ. وهذا ميزان عام في غاية الصواب، ولكل قطر تأثيراته الذاتية في العمل الإسلامي الذي فيه، ولا يجوز النقل الحرفي لتجارب الآخرين، كما لا يجوز تعميم النقد بناء على الظواهر، بل لابد من ملاحظة الخلفيات والفروق.

وعنده أن نوع المواد والمكننة المتاحة تؤثر في معنى العمارة، ، ولذلك كان من آثار تطوير الأعمدة باستعمال الحديد والخرسانة: تقليل مهمة الجدران في إسناد البناء عموماً وحمل ثقل السقف والطوابق العليا بخاصة، فأتيح للمعماري وضع النوافذ العريضة الطويلة وكثرة استعمال الزجاج، فأُتيحت من ثم الإنارة الوافرة والإطلالة على الجمال المحيط بالمبنى من خضرة ومياه من داخل المبنى. وهذه موازين تصلح للتخطيط الإسلامي، إذ أن وجود رجال الصفوة والقاعدة الصلبة يتيح انفتاح الجماعة الدعوية على المجتمع وتكثيف الخلطة به، لرجحان التأثير وقلة الخوف من التأثر. وكذلك الانفتاح على الثقافة الشمولية والفنون والمعرفة العالمية، لوفرة الاطمئنان إلى ثبات عناصر الدعاة وقابليتهم - إذ هم أقوياء

على التميز وانتقاء المعاني الصائبة وغربلة المسموع والمقروء، ونبذ واطّراح اللغو والأخطاء والأوهام، بينما تميل الدعوة في حالة ضعف تربية رجالها إلى عصمتهم عن تأثيرات المجتمع والثقافات بالعزلة والانكفاء على النفس.

وعنده أن العمارة طراز فردي وطراز عام في آن واحد، وأحدهما يؤثر في الآخر، فالمعماري ينوب عن المجتمع العام في تحديد شكل عمارته، فيترك أثره الفردي، ثم هو في إبداعه الخاص لايوغل في الفردية، لئلا يشذ ويُغرب، فكأن المجتمع صار رقيباً عليه. وهذا هو دور مجالس الشورى والندوات الفكرية وحلقات الحوار في الجماعة الإسلامية، بحيث تستفز الجماعةُ الداعية ليفكر ويجرب مغامرات العقل وطلب المعاني من مواطن المعالي، ولكنها في الوقت نفسه تجعل له مثابة دائمة تحت مظلة الرقابة الجماعية يفيء إليها ويرجع كلما غزا وجاب الصحراء.

وبكل هذا وضّحت كيفية استيلاء المعماريين على صناعة الحياة، حتى أنهم ليكادون يحتكرونها في ظن المسترسل مع حماستنا لهم، لولا أن يرده ما يعلم من أن أهل الفضل والعلوم والتخصصات قد توزعتهم دائرة مفرغة مغلقة لاتعرف لها طرفاً.

ولقد رأيت حسن فتحي أيضاً في حلقة تلفزيونية يتحدث عن مسيرته الطويلة، والقرية الإسلامية في أمريكا من إنجازاته، فازددت

وعياً وقناعة. وكان لي تأمل طويل في لمسات محمد مكية بجامع الخلفاء ببغداد، ونظر إلى أعماله الأخرى، فتعلمت الكثير.

فكن المعماري المسلم، أو المجهز له، أو الناظر لما تقترف يده الملائكية، لتفتح عرصات الحياة وتدق أبواب الحضارة، ولاتكن الرابع فتتربع من بعد ما أردت لك المنطلق . . .

## بين صَرِير القَصَبة.. ورَنَّة الذَهَب

• والخطاطون من صناع الحياة، وعلينا أن نزاحم الفن الجاهلي بفن إسلامي نظيف، والخط من أهم وسائله، لأن الحاسّة الجمالية في جمهور الناس تحتاج إشباعاً، وهم ليسوا مثل أعيان المؤمنين يستطيبون الجد والصرامة، فإن لم نستطع سد فراغهم وتطلعاتهم بالمباح: مالوا إلى التهتك ومقدمات الإباحية، أو استظرفوا الفوضوية الصاخبة، ومن إتمام شوط المعماري في التربية الجمالية أن يبرز لهم الخطاط يمتّع أنظارهم باستدارة العين، واستقامة الألف، وتداخل الهاء، وامتداد السين، وركوع الكاف، وسجود الراء، وانفتاح الدال، وينقلهم من ثُلُث إلى ديواني، ومن تعليقات فارس إلى أعمدة الكوفة، والزخرفة من قبل ذلك وبعده تتفجر بين يديه وتمتد إلى حيث اللانهاية، فكل تلميذ له هو للإيمان وليّ، وكل حائز لرقعة من فنّه على جدار بيته هو للإحسان صَفيّ، وتجليته للنفوس أكبر، وتسكينه للقلق أعظم، وتسليته للحزين أبلغ، فإن شغله هو

الحرص على تكييف أعماق الذات من خلال حركات الظاهر فهو مسلم وَلَعُه إنطاق حروف آيات الإسلام ودُرر قول نبي الإسلام عليه السلام، ووجهته تربية ذوق رجال الإسلام، وغايته جلاء جمال الإسلام، ومصبّ أحباره وألوانه في وادي الإسلام، فهو للإسلام ومن الإسلام وبالإسلام.

• والكشف عن الآثار: صنعة المؤمنين أيضاً، فإن المحافظة على الآثار الإسلامية وإبرازها تغرس في النفوس احترام الإسلام في اللاشعور، ولا يكون رائيها المتفهم لتاريخها ملحداً. وحين ينبري خمسة من الآثاريين يقولون بوجوب المحافظة على المئذنة الفلانية وعلى أقواس تنتسب لها فإنهم يكونون قد وطؤوا الأرض والمسار أمام الواعظين حين يدعون إلى الإسلام المحض والمفاصلة والعودة بالأمة إلى ما أصلح أولها.

• والكشف عن آثار الظالمين فيه موعظة للناس بالمنظر الشاخص أن: إياكم أن تظلموا! وفي سجن الباستيل تذكير بمصير الجبروت، وفي جثة فرعون الناجي ببدنه آية رادعة ودليل إعجاز.

ورأيت في التلفزيون العربي الإيراني الملتقط في الخليج حلقة تلفزيونية يتكلم فيها علي شريعتي بالفارسية بخطبته التي عنوانها (نعم هكذا كان يا أخي)، وصوت الترجمة العربية أعلى من نبرته، ولكن يواكبها، وقد أضاف المخرج صوراً وثائقية ومُمَثِّلة عن

الأماكن والأحداث التي يتحدث عنها ، فرأيت وسمعت شيئاً عجباً شدّني وهزّني .

وشريعتي هذا شيعي معتدل منكر على بدع التشيع الصفوي ، وقد أخبرني الخبير الثقة بصحة دعوى اعتداله مع بقايا قليلة لم يبرأ منها تمام البراءة ، وهو عالم اجتماع من الطراز الأول ، ومثقف بثقافة شمولية واسعة ، وكتبه محرّمة في إيران أيام الخميني بسبب اعتداله سوى مثل هذه الحلقة التي تذاع بالعربية ولا تؤثر في أهل إيران ، وكان الشاه قد أمر السفاكين في سافاكه فاغتالوه بباريس ، غفر الله له .

وقد انحدر هادراً بمقدرة خطابية عالية واضحة في نبرته رغم جهلي بلغته ، فذكر حيرة الفلاسفة والمصلحين في الأمم كلها أمام محاولة انتشار الإنسان من وهدته واستخذائه للظالمين الذين أرهقوه ، ويكف أراد كونفوشيوس رفع رأس أهل الصين من بعد ما رأى الأباطرة يستخفّونهم ويأمرونهم ببناء سور الصين العظيم وصنع ألوف التماثيل للجنود والخيل يخلدون بها أحداث المعارك ، لكن كونفوشيوس فشل لأنه أراد الملاءمة بين حاجة فلاح الصين وشهوة الإمبراطور . وكان زرادشت أفشل منه ، لأنه انطلق في إصلاحه من أروقة بلاط كسرى ، فكان أسيراً لسياسة المداراة . أما كهنة مصر فقد خدعوا المستضعفين بالعقائد القدرية السلبية حتى لم

يعد فيهم عرق ينبض حين كانت أجسادهم تتهاوى تحت ثقل حجارة تخليد فرعون إذ هم يرفعون صرح الأهرام، وكأن ضرب الصياد الذي يُلهب ظهورهم يؤلف أنغام النوم واستمراء الذل. حتى الإغريق: ألهى فلاسفتُهم عامَّتهم بالمجاز الذي لاتخصيص معه، فحاروا حيرتهم الكبيرة ولم تنجب الإنسانية غير متلفّت يروم الهداية وقد ضلّ الطريق، إلا الراعي الذي ظهر بمكة صلى الله عليه وسلم بعيداً عن العروش والبلاطات والفلسفات التعميمية، فأشار وخصّص، وأرشد المستضعفين، فاهتزت أركان الجبابرة، وتحطمت الطواغيت!

وأيم الله لقد هزّني ونَفَضني وأنا العريق في درب الإسلام، وعندها أدركتُ ماكان يفعله كلامه في النفوس الإيرانية حتى هوت بالشاه عن عليائه، وكان في سماعي تلقين لي عن دور صناع الحياة كيف يكون، ودور علماء الآثار والتاريخ في تعليم صناع الحياة دروس الحياة في امتدادها الفسيح.

إن اكتشاف الدعاة لأبعاد نظرية صناعة الحياة هو سطر في إعلام انتصار الدعوة الإسلامية في الربع الأول من القرن الخامس عشر.

وعلى خمسة من الدعاة أن ينتدبوا أنفسهم للنبش في الآثار ونفض الغبار عن بناء الأجداد، ليرجعوا إلى إخوانهم بالخبر اليقين، بخمسة آلاف ولاء يضافون إلى الرصيد.

• والفيلسوف من صناع الحياة، ولابد أن نقول لبعض الناس خبر أرسطو وسقراط، وأن دعوة لا تملك ثلاثة باحثين في الفلسفة مع فيلسوف مبدع على رأسهم هي دعوة لا يمكنها أن تؤثر في جميع المثقفين.

ولماذا نشطب بجرة قلم سهلة على كل المتأثرين بالثقافة الغربية؟

ألا يجوز أن نفترض أنهم ضحايا وأن نحدثهم بلسان يفهمونه؟

ومن قال أن قَدَرَهم الكفر؟ أوَلا يمكن أن يكون قدرهم الإيمان والرَفَل بطمأنينته لو أوضح لهم موضح خبر ديكارت وكانت فقبل ورفض، ويكون كالغزالي حين نقض الفلسفة بالفلسفة واستعمل لغتها وألفاظها حتى صار كتابه الذي بيّن فيه (تهافت الفلاسفة) مفْصلاً من مفاصل التاريخ الفكري للدعوة الإسلامية؟ إن التخطيط الَدعوي مكلف بمحاولة إبراز هؤلاء المتفسلفين الأربعة. ولكنه لكي يحصل عليهم لابد أن يدفع بعشرين إلى دراسة الفلسفة، ثم ينتظر بروز المبدعين منهم ليجلبوا إلى رصيد الولاء ثلاثة آلاف في عشر سنوات، وينشروا التخذيل في صفوف الملاحدة، ويمهدوا بعقلانيتهم للعاطفي الواعظ طريق التأثير.

• والنسّابة العالم بأنساب القبائل والعوائل وشجرات الشرف هو من صناع الحياة، فإن الناس يحتاجونه ويأنسون به، والدعوة تحتاجه بعد ماتعمّدت التربية الحديثة طمس أنساب الناس لإتاحة مجال

الصعود والأمر والنهي للغوغاء والنكرات والدخلاء، حتى صدرت قوانين بتحريم الانتساب إلى قبيلة أو مدينة، وما كان (كوهين) ليصل إلى مرافقة علي علي عامر في تفتيشه لدفاعات الجولان لولا أن التربية علمت مَن هنالك أن لا يسأل عن نسب رفيقه!

ليس علم الأنساب من الباطل، ولاتكبّر ثَمّ، وإنما إذا اجتمع النسب الشريف مع العمل الصالح فنعمّا هو، والشافعية ميزوا الشافعي على الفقهاء بأنه قرشي، ورأيت إمام الحَرَمين الجويني متحمساً لذلك في كتابه: الكافية في الجدل.

وقد وجدنا بالاستقراء الاجتماعي أن الأخلاق الطبيعية الأساسية هي أوفر لدى أبناء العائلات العريقة، من شجاعة وكرم ووفاء وعدم غدر وصدق وكراهة الطعن من الخلف، مع أنهم يتلبسون بمنكرات، من زنا وشرب خمر، إلا أن هذه سيئات طارئة، يمكن التوبة منها من قريب، وإنما البناء في الحياة: بناء تلك الأخلاق الأساسية.

وتساؤل: وهل تزني الحرة؟ الجواب على كل اعتراض.

• ثم التاجر المسلم هو من صناع الحياة، ونِعم الصناع هم، بل هم صناع الصناع، وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية، وأن ترجع إلى وصية كبار العلماء في تفضيل أبواب

الرزق الحرة، وأنا أفتي فتوى لأهل المذاهب الأربعة من الدعاة أن من مَلَكَ منهم ثمن ثلاثمائة وخمسة وستين رغيف خبز وجَرَّة من الخلّ يجعله إداماً، وألفاً وخمساً وتسعين تمرة: فإن الوظيفة عليه حرام، ولينزل إلى السوق يجمع المال ويصفق وينافس، إلا وظيفة لها مردود دعوي، وليبدأ ببيع حبلٍ أو حصير، فإن الذَهَب بإذن الله آتيه.

كلنا يجيد سب اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق، ويضجر من الأقباط والبُهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل من الدوائر الاستعمارية في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة من قوى خفية أخرى ربما، ولكننا لم نُحسِن غير المسبّة.

بدل أن تلعن الظلام أوقد شمعة.

يجب أن نزيح الفاسقين ونحلّ بدلهم، على نظرية الفيزياء في الإزاحة والإحلال.

إن قوة الاقتصاد الإسلامي ستكون عاملاً من عوامل قوة الدعوة الإسلامية، إذ إضافة إلى اطمئنان المسلمين في التعامل مع سوق إسلامي ومنظومة شركات إسلامية، وإضافة إلى ماسيشيعه رجل المال المسلم من معنويات في النفوس وأذان في المسلمين أن كونوا أقوياء وزاحموا بالمناكب، فإن قوة المال ستكون في خدمة الأمة

والدعوة والسياسة والفكر، وسيسند العملية الإيمانية الشاملة، وبدل أن ينطلق الداعية من الرباطات والحصران الرثة ودهاليز الدروشة فإنه سينطلق من مواطن التأثير ومباني الشركات.

نعم، سبقت حصيرة في الميزان ناطحة سحاب، لكنها الناطحة النفاقية الفاجرة، أما حين تنطح السحاب استمداداً من عِزها الإسلامي وشموخاً بالعفاف الإيماني فإنها تسبق مليون حصيرة.

لنترك المنطق غير المسؤول، فقد آن لنا أن نكتسب بعض الوعي وأن نتعلم بعض أسرار الحياة.

لابد أن ننزل إلى ميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير، وبخاصة في البلاد الحرة التي لاينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الفسيح متسع للاستثمار.

يجب أن نوجد معادلة اقتصادية جديدة، وأن نشكر المقتحم.

المال ينطق، ورنّة الذهب قرينة هدير الواعظ من على منبره وهتاف المتحمس في حفلته وشارعه.

فحتى متى نذهل... حتى متى؟

كن حمّالاً في السوق، لكن قرر مع أول خطوة لك فيه أن تصير تاجراً أو عقارياً أو مدير شركة، فستصير وتصل بإذن الله. المهم تصميمك وأن لاتستطيب جلسة الوظيفة الحكومية.

قرر قبول الجوع سنة تأكل الخبز بالخل، هذا هو المهم، إذ ستأتيك الأموال من بعد، وستجد مراغماً كثيراً في الأرض وسعة، وتكون من صناع الحياة، فستكتسب علماً إذ أنت في الطريق، وتُهدَى إليك الأسرار في مجالسك، وتتجمل بالأذواق من خلال ندمائك، وتتولد عندك الأفكار عبر سياحاتك والمعارض التجارية التي تزورها وقد حَشَدَ لك فيها أهلها خلاصة عقول البشر ومبتكراتهم وهممهم في مكان واحد.

## معادلة المالِ والعِلم والجَمَال تجعلنا الأكفاء

وهكذا أهل العلوم والفنون والمهن الأخرى.

• هكذا الفيزياوي الذي يشارك في بحوث الذرة والليزر ويكون فخر الناس في بلده أو لدى أبناء الأمة الإسلامية عموماً، والمدرس في المدرسة الثانوية الذي يبني أساس العقول والمعنويات لدى الجيل الصاعد، والأستاذ الجامعي الذي يملأ الأسماع ببحوثه ومحاضراته، والمؤرخ، والاقتصادي المَنَظِّر، والخبير النفطي الذي يستوعب خبر الأسعار وأوبك وأوابك وينقد ويصحح، والمجاهد في أرض الثورات، والإعلامي الجريء المبتكر، والفنان المصور بالكاميرا، والرسام التجريدي، والمهندس المخترع، وخبير المخطوطات، إلى ألف تخصص ومهنة، وإنما مَثَّلنا لك الأمثلة وعليك القياس، والأمر كما قال عليٌّ لأبي الأسود الدؤلي رضي الله عنهما يعلمه أصل النحو: الكلام حرف واسم وفعل، وانح منحى هذا، فكان علم

النحو الواسع بالاستقراء ثم بالاشتقاق، وقد قلنا لك إن صناع الحياة واعظ وشاعر ومعماري وتاجر، وانح منحى هذا، وارفع الأذان مع ألف وصلوا درجة الاجتهاد في فنهم: تمنحك الحياة زمامها لتقودها.

حتى أصحاب الصوت الجميل الذين يتلون القرآن، فإنهم سبب استرواح أنفُس المؤمنين، وتغمر سامعيهم السكينة.

• إن نظرية صناعة الحياة في خلاصتها هي تنبيه لضرورة إمساك الدعاة بمصادر القوة العلمية والمحركات العاطفية والجاذبية الجمالية والتسهيلات المالية.

إنها نظرية القدوات، والنقاط الجامعة، والبؤر اللامعة.

وهي مصادر الولاء التي ترفع الرصيد في مصرف الترجيح حتى يبلغ على النمط الذي وَصَفنا ربع المليون أو نصفه، فيكون كافياً لإحداث النقلة، حسب سعة نفوس البلد، بالفهم الذي جرّدنا به الملايين الكثيرة من أهميتها وإرهاب رقمها الظاهري.

ما أبخس الثمن لمن مَلكَ مصرفاً!!

• ثم نضوجان لازمان: نضوج هؤلاء الألف، ونضوج الظرف.

يقال: لم تهتز أجواءٌ بنبضات كما اهتزت أجواء فرنسا بترددات برقيات اللاسلكي بين رجال المقاومة الفرنسية للنازية قبيل إنزال نورماندي.

وأذان الألف الجلي، وهمسهم الخفي: سيبعث الحياة في الحياة.

ومن النقاط التي هي فوق أحرف نظريتنا : أن لا يطيش الدعاة إذا رأوا فرصة وفراغاً في بلدهم يمكنهم أن يملؤوه وهم بعد ضعاف لم يَقوَ عُودهم ولم تكتمل تربيتهم ولاتقلّب لهم في المراحل ، وإنما عليهم أن يدركوا أنهم يعاكسون تربية جاهلية علمانية ممتدة عميقة الجذور كثيرة الرجال ، قد سخرت العلوم والآداب والفنون ، من باب ، ثم أن يدركوا من باب آخر أنهم في محاولة بناء حضاري شامل ، ولذلك لايغني الاستعجال ، ولارد الفعل المتطرف والمكفّر والمتكلف لمعنى الجهاد ، وإنما هو الطريق العلمي الجاري مع شمولية العلم والتوزع التخصصي المتعمق ، والتربية الذوقية التي ترتفع بالأحاسيس إلى أوج الإرهاف وتُنكر الإرهاب .

• ويوم بدر خرج الثلاثة الكفار من قريش يطلبون المبارزة ، فأخرج لهم النبي ﷺ ثلاثة من الأنصار ، فقالوا : والله لانطعن في أحسابهم ولاأنسابهم ، ولكن أخرج لنا أكفاءنا من قريش . فأخرج لهم علياً وحمزة وأبا سفيان بن الحارث ، فقتلوهم .

وكذلك الناس دوماً : تحب المكافأة حتى إذ هم يُقتلون ، والقرشية اليوم تتمثل في الصروح العلمية ، والمجامع الأدبية ، والمعارض الفنية ، والمتاحف الآثارية ، والمؤسسات الصحفية والمعاهد السياسية ، والدور الوثائقية ، والشركات الصناعية والقاعات المصرفية ، وعلى دعاة الإسلام اليوم أن ينطلقوا منها للمبارزة .

# التقعيد الجامع

هي نظرية الفرسان إذن، كما كان الأمر في العصور الوسطى يعتمد عليهم، وكان لكل ملك أو أمير قلة من الفرسان الذين يُغْنُون عن جيش كبير، لجودة معادنهم وأخلاقياتهم وتدريبهم. بل يولّد وجودهم رعباً في نفوس العدو من مسيرة أيام.

كان الفارس يُنتقى من بين أشجع الجند وأذكاهم وأقواهم جسماً، ويُغذّى بأجود أنواع، ويُلبس الدرع السابغ. وشاع التواصي بينهم بضرورة المروءة والتعامل النبيل، فلا يعتدون على عرض ولا يظلمون فقيراً ولا يَكذبون، ويُلبّون نداء النجدة، وغير ذَلك مما أخذوه من أخلاق جُند صلاح الدين الأيوبي.

فالأمير الذي كان ينجح في تدريب وتربية وتجهيز ثلاثمائة فارس يصبح غالباً مرهوب الجانب، والمدينة التي كان يتواجد فيها عشرة فرسان تكون آمنة مطمئنة لا يتظالم أهلها، للهيبة التي لثُلّة الفرسان رغم قلّتها، إذ أن أحدهم يكون أمة وحده، ويحيطونه بالحديد ليحمي الكتلة الأخلاقية التي بين صفائحه.

ولو وُجِدَت فرقة الفرسان اليوم في كل قطر لتعادلت بهم أطراف الأرض ولرَجح أمر الإسلام، ولهدأت نفوس مضطربة، وانقطع الظلم.

الدعوة قوية بفرسانها، والتربية القيادية هي التي تجعلهم فرساناً.

لكن: أمِن أجل ذلك لايضم صف الدعوة إلا الفرسان؟

كلا، إذ ما أدرانا في البداية أن فلاناً يصلح أن يكون فارساً؟

بل نجمع العشرين ألفاً من أجل اكتشاف الألف، وماهي منازل شرف فخرية نهديها لهم، وإنما هو نشوء طبيعي من خلال المعاناة، وتتراجع الأساليب العشوائية لصالح العصامية وإثبات القدرة الذاتية، ودَور الجماعة يكون في أنها إذا رأت النجابة في صاعد فإن عليها أن ترعاها وتزود الفارس برمح ودرع وسيف ليستوي على ظهر جواده كالملك على سريره.

ولكن مع فارس أتباع، يساعدونه في لبس الدرع ونزعه وإعداد الطعام وحراسته حين ينام، وجمهور الدعاة الألوف أتباع لفرسان الدعوة، ونِعم الشرف ذاك لهم ماداموا على سَنَن التعاون الإيماني.

فالتابع ضرورة من ضروريات الدعوة أيضاً، وكلٌ مُيسر لما خلق له. وكانت الحياة الإسلامية زمن النبي ﷺ تعتمد على طبقات من الأتباع مثلما تعتمد على وزراء النبي ﷺ وبقية العشرة المبشرة وقادة السرايا وفقهاء الصحابة.

ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال: (بَعَثَ رسول الله ﷺ إلى امرأة: مُرِي غُلامك النجار يعمل لي أعواداً أجلس عليهن.)[١]

وفي الصحيح أيضاً (أن رجلاً أسود وامرأةً سوداء كان يَقُمّ المسجد، فمات، فسأل النبي ﷺ عنه فقال: مات. قال: أفلا كنتم آذنتُموني به؟ دُلُّوني على قبره أو قال: قبرها، فأتى قبره فصلى عليها.)[٢]

فالسوداء الضعيفة جزء من الحياة الإسلامية، وصانع المنبر جزء، في ألوف كان بهم قوام الحياة، وهي ظاهرة تطّرد في كل جيل وبلد ومدينة، ونحن نريد الفرسان، وبين يدي كل فارس مجموعة تسعى بين يديه وتمهد له، كالطيار الذي تخدمه مجموعة أرضية تضع له الوقود وتحشو له القنابل وتفحص المحركات وتجسّ له مقادير الضغط والحرارة واتجاه الريح، فيأتي امتطاؤه لصهوة طائرته سهلاً ومفيداً. فصانع الحياة ننتدب له من بيننا سكرتيراً وطبّاعاً وحارساً ومتسوّقاً، فإن لم تكن فارساً أيها الأخ فكن تابعاً وفياً.

• وصانع الحياة في الوصف الآخر هو: مؤسسة، ليس فقط بمعنى أنه يقوم بدور كبير يشبه أدوار المؤسسات، وهذا وصف صحيح،

---

(١)، (٢) صحيح البخاري ١/١١٥/١١٧ صبغة صبيح.

وإنما بمعنى قدرته على توظيف طاقات أخرى معه أيضاً، فكثرة من الدعاة أصحاب القابليات الضعيفة والمتوسطة لا يستطيعون شق طريقهم الدعوي بأنفسهم، ويريدون مَن يأخذ بأيديهم ويقطع حيرتهم وتلفّتهم، ويبقون كالغرباء في مدينتهم، من أثر فطرة فُطروا عليها وحياء وخوف من مسؤولية تحمّل القرار، وحب للظل وضمور عندهم في جانب الابتكار، فيأتي صانع الحياة ويجعلهم من حوله حلقة دائمة النفير، ويستخرج من طاقاتها المكنونة مالم تكن هي نفسها تعلم امتلاكها له، فيحدث بذلك زخم دعوي قوي يترك آثاره، وتنقطع نفوس الأتباع عن الوسوسة والحسد، فما تعود ثم فتنة أو لغط، وإنما يكون الصانع وأتباعه كتلة عاطفية فكرية مادية ثقيلة الوزن، تفعل الأفاعيل وتأتي بالأعاجيب.

ومن هنا فإن تطبيق نظرية صناعة الحياة يعتبر من أقوى وأنجع الحلول لظاهرة الفتور في المحيط الدعوي.

## هي خصائص النفس منذ آلاف السنين

وكل هذا إنما هو من فروع (الظاهرة التربوية) و(المسألة التربوية) التي سبق لي أن شرحتهما في المجتمع أواسط سنة ١٩٧٢، وخلاصة مفادهما: قابلية النفس الإنسانية على التأثر بالمسموع والمنظور، وهو اكتشاف اكتشفه الإنسان مع بداية عصر الحضارات، مما جعل أهل التأثير في محاولات دائبة مستمرة لتجويد كلامهم وتكلّف إبداء

مناظر ذات مدلول خاص يلتقي مع العقيدة التي يروجون لها أو الفكر الذي يشيعونه ، فصارت البلاغة آلة من آلات التربية لقابليتها على إدخال معنى معين في روع السامع أو القارئ ما كان ليعتقده لو أنه قيل بركاكة ، وكذا صار الشعر من آلات التربية لمبناه الجمالي الملتقي مع الحاسة الجمالية في النفس الإنسانية .

وأدت الموسيقى الأغراض نفسها ، والرسم ، والنحت ، والمناظر ، التمثيلية المؤداة في المسارح ، وغير ذلك ، ومازالت هذه المؤثرات اليوم في أمريكا وأوروبا وعموم العالم هي كما كانت زمن الإغريق والرومان ، ولم يتغير سوى (نطاق التفنن) ، بسبب المخترعات الحديثة وتسهيلات الرقي المدني وقد مَنَعَنا الشرع من استخدام النحت والرسم الذي فيه مضاهاة ، ولكن حقيقة تأثيرهما في النفوس باقية ، وقد رأيت في المتحف البريطاني ، في قاعة الفن الحديث منه ، تمثالاً لرجل عجوز معذَّب تثقله القيود وقد مُنع عنه الماء ، فجاءت امرأة من محارمه ، كأنها ، وقد منعوها أن تسعفه بالماء ، فأخرجت ثديها يرضع ويرتوي بلهف وقد كاد يموت ، فأخذتني قشعريرة لما رأيت ذلك وفار دمي على الظَلَمة ، وأحسب أن تأثير هذا التمثال في زائري المتحف يعدل تأثير عشرة دواوين لفحول الشعراء في تقبيح الظلم .

وكل صناع الحياة في جمهرتنا الدعوية يستطيعون الانطلاق من حقائق الظاهرة التربوية لتكثيف وتقوية آثار بصماتهم الخاصة في

الحياة العامة، فالبلاغة وسيلة واعظنا وشاعرنا، والعدسة بين يدي مصورنا بدل الرسم المحرم أو المكروه شرعاً، يغرس بالتقاطات عدسته كراهة منظر سوء تعافه النفوس اللابثة مع فطرتها، ويحرك مشاعر الاقتداء بمنظر آخر من التضحية والبذل والفداء.

## لمعةٌ... ليس لها مِثال

الشرط اللازم لصانع الحياة في كل ذلك هو أن يبدع ويكون مجتهداً ويأتي بالنادر الطريف، ليس بالذي ينسج على منوال الآخرين ويقلّد، فيملّه السامع والناظر، ويزهدان بما يعرض.

والإبداع وصف يستعصي على الوصف، وإنما يوفَّق له الذكي ويميزه الخبير.

بعضه تجديد يأتي على غير مثال وسابقة.

وبعضه تمرّد على المألوفات والمسلّمات المتوهمة إذا أدركَ تخلّفها واضطراب منطقها.

وبعضه اشتاق وقياس، يولّد ولا يُغرِب، ويذهبُ ولا يُبعِد.

وبعضه انكفاءٌ على أصل مهجور كان منه المنطلق في البداية، فنسي الناس العِرق الذي يربطهم به وينسبهم إليه، فيعود بهم المبدع إليه في النهاية.

ثم بعضه اقتحام في موطن الانخزال، ووفاء في ساعة النكوص، وفصاحة إذا رطنت الألسن، وكرم إذا اختبأت الأيدي، وسمو إذا نطق الإغراء، ونبل عندما يسفل التعامل، وسِتر إذا استرسلت الفضائح، وفناء إذا قُدّست الذات.

والاجتهاد: انتشال من وَهدة، وتوجيه في ساحة حيرة، وتخصيص من بعد تعميم، وتعميم لبادرة، وأذان في نيام، وسلوة بين أحزان، وتحقيق عند الجزاف، وإثقال لكفة الميزان إذا هبطت صاعدة، وانتباه لتبكيت النفس إذا استبدت مُنحدرة في الهاوية وهي تتوهم الارتقاء.

## اقتحم... أنت لها

وفي مثل هذا المنعطف يجفل الراهب فيدعي عجزاً ويقول: تريدون مني أن أكون فقيهاً وليس جدي مالكاً ولا الشافعي، وتطلبون أن أتغنى بالشعر وما ولدني المتنبي ولا البحتري، وتتمنون أن ألوكَ الفلسفة وليس جاري سقراط.

فمن أين يتأتى لي الإبداع وقد قال النبي ﷺ: الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة؟

فنقول: نعم، نريدك ونطلب ونتمنى ونظن ونجزم، ولا وجه لاستضعافك نفسك واستصغارك صحبك، وقد أعطاك الله ذكاء ونسباً، فلم لا تتعلم السهر وتطلب الفصاحة؟

والجزم مستَمَدٌّ من براهين ثلاثة لدينا :

**الأول**: أن النبي ﷺ لم يقل : الدعاة كإبل مائة ، وإنما قال : (الناس) كإبل مائة ، ونحن لسنا الناس ، بل نحن الرواحل كلنا ، ونحن صفوة الناس ونُخبة المجتمع وزبدة البشر وخلاصة المسلمين ، فكيف نساوي أنفسنا بالعامة واللاهين؟

**الثاني**: أن الحريات تُربي وتطلق الطاقات ، والأموال تساعد وتتيح مالا يتاح للفقير ، والتيسيرات المدنية والمخترعات تضاعف النتائج ، وكثرة من الدعاة يعيشون ظروف الحرية اليوم ، ومَن لازال مظلوماً : له أن يهاجر ليتربى ويعود ، وأموال الدعوة تخدم الصاعد في مدارج الصناعة ، ثم الطائرات تُقلّه ، والفيديو يُنضجه .

**الثالث**: أن نظرية صناعة الحياة لا تريد كل الدعاة فلاسفة أو شعراء ، وإنما هي مائة صناعة ومهنة وفن وتخصص وما نظن أحداً يقف بهذه الأبواب المائة يطرقها ثم لا يفتح له باب يلج منه إلى دار الاجتهاد وركن الإبداع ، ونظريتنا بريئة من إرهاق أحد وإعناته وإحراجه ، بل دون الذكي الاختيار الحر ، يرسم لنفسه الدور الذي يشاء إذا شاء الله ، وكل الطُرق تؤدي إلى القاهرة وصنعاء ، ويعقوب مازال يوصي أبناءه : يابني ادخلوا من أبواب متفرقة .

هكذا أيها الأخوة : كلنا رواحل ، في ميدان حر ، ومداخلنا شتى . فقط يراد لنا أن نثق بأنفسنا .

دعوة التبليغ أجادت غرس الثقة في دعاتها، وبخطبة واحدة يتعلمونها يجوبون الآفاق ويواجهون المجتمع، وآخرون يأمرون إخوانهم بضم الرأس ويقولون لفتى الصحوة: أنت في خندق احترس وأتقن الاختباء.

من قال ذلك؟

كلا، بل نحن في عرصه واسعة وليس الخندق الضيق، ومعنا كل الخُطب المتنوعة الفصيحة، ومعنا ثوابت الإسلام وحماسات الظلال وتفريعات القرضاوي وعقلانيات المودودي وتسبيحات النورسي، والذين ظلموا الدعوة دهراً في يأس اليوم.

فمن لم يستطع كل هذا، ولم يتقن فناً يكون به من صناع الحياة، فليتقن فناً دعوياً مؤكداً: أن يكون من صناع الحياة بشموخه وضربه المثل العالي، كذاك الذي انقطع به حبل المشنقة لحظة إعدامه بالباطل فقال: كل جاهليتكم رديئة... حتى حبالكم رديئة.

وليس وراء صنعة الشموخ حبة خردل من معنى دعوَي.

## نحن الأمل...

ثم آن لنا أن نثق بإخواننا، وأن نترك التبديع واتهام النيات وموعظة احتقار النفس وهواجس تهمة الرياء.

لقد أتلفت طريقة الحارث المحاسبي في الوسوسة الكثير من الدعاة، وعادوا يتخوفون من أنفسهم، ويظنون كظنه في كتابه (الرعاية) أن لا عمل ينجو من الرياء والتكبر.

لسنا ندعو إلى تسهيل الرياء والتكبر، بل لنا فصاحة في هذه المواعظ بحمد الله، ولا فخر، ولكننا ندعو إلى الرفق بالدعاة.

الداعية أثقل وزناً من قبيلة بجدودها. والناس اليوم تحكمهم العداوات، ويتصرفون كأنهم الذئاب، بعضهم يأكل بعضاً مع أول غمضة عين، ونحن أطهار أهل عفّة، تسودنا الطمأنينة في المجتمع اللاهث، والأيام تعظ الداعية إنَ بقيت فيه بقية، وهو الله الذي يتولى حفظ الجماعة من ذي سوء يخادعها، ليست حراستنا ولا أنظمتنا، ولنتذكر دائماً أن الجماعة أقوى من الفرد مهما تفاصح والتاف وتَمَسكن، تغلبه في النهاية بإذن الله إذا غالبها، وعلينا أن لا نخاف من فرد أبداً، ولا من جماعة جمعها فرد من منطلقات التوتر والمنافسة.

لذلك يحسن أن ندع الدعاة يجربون صناعة الحياة، والموفق من سيوفقه الله وتثبت قدمه ويؤاخي ويُبطن النصح ويبذل الخير، والمتطاول سيشجه السقف فيتأدب.

## الهيمنة المِحورية العابرة

لكن حسن النتائج منوط بشروط ثلاثة:

**الأول**: وجود سيطرة تدير وتنسق حركة صناعة الحياة، وترسم الأدوار، وتذكّر بعضهم أن ينطق بمعنى، وتطلب تكثيف القول في موسم دون موسم، ومكان دون مكان، وتوزع الميمنة والميسرة والقلب، ثم توجه الجميع من بعد للأذان بفكر الدعوة وفهمها وقرارها في وقت واحد، ليكون زخم التأثير بالغاً مداه، فتكون حزمة الأذان الدعوي مثل حزمة أشعة الليزر حين تتركز.

وكما يقف سبعة من المؤذنين في صحن المسجد الأموي بدمشق يؤذنون بنغمة واحدة: يرفع صناع الحياة صوت الإسلام، ويصطف الطبيب جنب التاجر، جنب الفلكي، جنب الخطاط، جنب الفيلسوف، جنب الشاعر، ليؤذنوا ويقولوا معاً: تخسأ الجاهلية، تخسأ العلمانية، بالإسلام حل عقدة الأمة.

يومها ستتزلزل الجبال.

**الثاني**: ارتباط الجميع بقضية محورية حية، وقضية فلسطين اليوم قضية الإسلام والمسلمين، وينبغي أن يكون لكل صانع من صناع الحياة خيط يربطه بالقضية الفلسطينية وقولها وجهادها، أو القضايا الموسمية، كقضايا الدستور في بعض البلاد، والميثاق السياسي والاجتماعي، والحريات، والمنهج التربوي.

**الثالث**: تطبيق نظرية جسر العبور بمهارة من خلال الإحصاء واستعمال الكمبيوتر فمن لم نستطع الوصول له مباشرة نصل إليه

بواسطة أبيه أو ابنه أو جاره أو صديقه أو رئيسه الإداري أو سكرتيره.

## كل الطرق تؤدي إلى مركز الحياة

صرنا نفهم أنه لكي نعيش مع الناس فإن عليهم أن يطيعونا. وهذا الطلب للطاعة ولّد عندنا التقوقع والانكفاء على النفس والعيش في المجتمع الخاص.

وما هكذا يكون التعامل الدعوي، وهذا حلم بعيد نعيشه ولن نحصل على طاعة جميع الناس ولو بعد مئات السنين، ولكن نطلب الطاعة من المنتمين للدعوة، وهناك في كل مجتمع من لابد أن ينتمي، يتكفل الله بذلك، وأما البقية فيكفينا منهم الولاء ليأتونا أفواجاً ويكون منهم الدوران في أفلاكنا، إذ أننا نستخدم ظاهرة حيوية ما نحن لها بمتكلفين.

إن طلب طاعة جميع الناس باطل اخترعته أوهامنا، ولكنه الولاء، والذي تكفل بدوران الإلكترون حول البروتون، والمريخ حول الشمس، سبحانه، هو الذي يتكفل بدوران الأخيار حول النواة الدعوية.

من جد: وجد، إما أنا أو الفاسق، فإن الفاسق يصنع الحياة أيضاً على هذه الطريقة، وإذا لم يكن كتف المسلم قوياً: ضربه كتف آخر فترنّح.

هذه سنّة الحياة .

الحياة يبنيها صنّاع ، كلٌّ منهم يؤثر في جانب منها .

فالشاعر مؤسسة ، ويستعمل جمال اللفظ وسمو المعنى .

والرسام مؤسسة ، لكن مادته الألوان ومجاله النظر .

والمفكر يتكفل عن الآخرين بحل إشكال أو معضلة ، من مشاكل الحياة العادية ابتداءً ، كالمشاكل الاجتماعية والأخلاقية ، إلى المشاكل ذات البعد العلمي أو المدني انتهاءً ، كالتردي في الإنتاج ، والهزيمة العسكرية ، وضعف البناء الحضاري . ولو نمسح حقول تفكير المفكرين لنجدها تقرب من ألف حقل ، يسألون فيها أنفسهم يجيبون . وهم إذ يفكرون (لايفكرون) في عزلة ومن وراء جدار يحجبهم عن المجتمع والمشاكل ، وإنما من موطن المخالطة ، ويصدعون بما يتوصلون له كتابة ومحاضرة ، بل يأتي أحدهم من ألوف الأميال ليحاضر بآرائه ويحاول الإقناع .

والله تعالى هو الذي قدّر الأشياء التي صارت تاريخاً ، ولكن مَن الذي يكون سبباً في رؤية البشر اليوم؟

السبب لا يأتي غريباً عن المنطق البشري . فهذا المؤرخ ومعه آثاري نبشا بأرض الأهرام حتى أخرجا مومياء فرعون ، وآخر نبش واكتشف حجر رشيد وترجم لغته الهيروغليفية وعرف الذي كان ،

وآخر بنى المتحف الذي يعرض به، وآخر يرحل ليرى ماهنالك فتتصاعد تحدياته وحماسته فيخطب لك خطبة (نعم هكذا كان يا أخي) فيكون الخمسة من صنّاع الحياة.

• إن قيادتنا للحياة هي القيادة، وليست مراكز المسؤولية التي تضعنا فيها التوزعات الدعوية ويمنحنا إياها أمير الدعوة.

صانع الحياة يدوس الألقاب برجله ويحطمها، ويمضي يصنع الحياة من موضع التخصص والفن والإبداع.

هو مليء النفس ولا يحتاج أحداً لملئها.

الذي يطالب بالمسؤوليات والألقاب الدعوية والنقابة والإمارة على المؤمنين إنما هو العاجز الذي لا يحسن علماً ولاتخصصاً ولا فناً، فيطلب التعويض بإنعام الألقاب عليه، ويعارك، ويختلف، ويناضل دون مكتسباته السابقة، ويملأ الكواليس همساً وسعياً. وأما المقتدر فيتقدم تقدم الواثق، فإن علمت إمارة الدعوة فضله ودوره فكلفته: قبل الأمانة وأداها وشكر الأمير إذا دلّه على خير. وإن لم يلتفت الأمير فصله ونسيه: لم يلتفت هو بدوره، ولم يكن منه تلميح وتعريض أو تصريح، ومضى يصنع الحياة، يحدوه منهجه الإلهي، أبيّ، بمشيته يُباهي.

ولو مشينا في مدينة من حواضر الإسلام الكبرى التي كان لها دور وشأن ورأينا مدارسها وخاناتها ومساجدها العظيمة وأسواقها

وأسوارها وغير ذلك مما فيه إظهار هيبة الإسلام وعظمته ومعطياته الحضارية ونفخته الحماسية في الأرواح لأدركنا أن نخبة المهندسين الذين بنوا تلك المعالم المنيفة عبر الأجيال هم مثل أي فقيه أو شاعر تفخر به الأمة، أو حاكم عادل يتسابق الوعاظ في ذكر مناقبه.

المهندس يضيف من اللمسات الجمالية إلى الحياة الإسلامية ما يعدل أثر فقيه، ورُبَّ فلكي مسلم يكون له من الأثر الإيماني عند تفهيمه الناس حقائق الفلك وأرقامه وسر السماء مايعدل مائة واعظ. وليس أقل منهما الأديب الذي يتكلم بالوصف المحض فيصف جمال الوردة وأمواج البحر ونور الشمس وحركة السحاب وفطرة الحيوان وألوان الطير وأمثال ذلك من المعاني الابتدائية البسيطة، فإن مثل هذا الأدب يزيح ما يعدله حجماً من أدب المجون والتخذيل، ويقترب بالسامع مرحلةً نحو التوحيد، ولست أفهم أن الشاعر المسلم يجب أن يذكر الجهاد ويذم الطواغيت.

• كذلك يبرز رجال من الدعاة يقودون فقراء المسلمين وعامتهم بالأخلاق التي يحملونها، ويجدد أحدهم صورة الفارس النبيل العفيف الشجاع الذي لايكذب ولايعتدي على عِرض، ودأبه نصر المظلوم وإجابة المستغيث اللهفان. وفي المسلمين اليوم إحباط وتراجع وانسحابية ونفسية انهزامية لايعالجها إلا وجود مثل هؤلاء القدوات الذين يتركون الخنادق والمعتزلات وينزلون إلى مخالطة الناس.

الناس تتجمع حول نقطة مركزية وتأمل أن يقودها أحد إلى شيء فيه عزُّها وتسليتها وتعويضها، وهي في فراغ أوجدته النكسات وحاجة ولدتها النكبات وتطلب من يملأ عليها فراغها ويسد حاجتها لتسلِّمه قلوبها.

• لقد منحنا الله الحواس لنستخدمها لا لنعطلها، وقد آن لنا أن ندق على صدورنا ونقول: نحن نصلح الحياة.

ولئن حصل تجميع بالأمس فيه تساهل وتكاثر فإن تجميع اليوم والغد يجب أن يكون بالموازين الانتقائية التي تجلب من يصنع الحياة، ولسنا نهمل الصنف الآخر، ولكننا لا نرهق كاهل الجماعة باحتوائهم داخل صفها إذا كانوا عناصر غير منتجة، بل نربطهم بالولاء ولا حاجة لأن نطلب منهم الطاعة.

والناس يحتاجوننا، كمن وقع في حفرة ويستنجد بالمارّة، وهو مثل صحيح ضربه الغزالي في الإحياء، ولابد أن نمد أيدينا لهم لنخرجهم من ضلالهم إلى الهداية، ومن فوضويتهم إلى السكينة، ومن تحاسدهم إلى المودة.

نعم، هناك من يتقعر ويتكلف ويطلب المخاطبات الدبلوماسية وفق القواعد النحوية رغم سوء منقلبه، ولا يريد أن تخرجه منه إلا بخطبة تتقعر له فيها وتتكلف، ولكنهم قلة، كذاك النحوي الذي وقع في كنيف، فأحاط به الناس يمدون له أيديهم ويقولون: يدك،

يدك، وهو لايكترث، حتى مرَّ به وبهم مشفق عرف سرّه فقال: خلّوا بيني وبينه، ثم قال له: ناولني كفك الشريف لأخرجُك من هذا الكنيف.

فمد يده عند ذلك وأخرجه.

والداعي قد يتقعر ويجادل ويتبع قواعد الدبلوماسية مع مثل هذا، شفقة عليه ورحمة به، وقد يتركه إلى مصيره تأديباً له، ويأبى أن تذهب نفسه حسرات عليه...

# الذين آمنوا وعملوا الصالحات

هل هذه النظرية في صناعة الحياة نظرية جديدة؟

قد يظن ذلك الذي يجيب باستعجال، ولكن الذي عنده علم من التاريخ ينفي ذلك أبداً، ويبرهن أن الحضارة الإسلامية صنعها صناع كهؤلاء وانغمسوا في علومهم وفنونهم وآدابهم انغماساً ترك آثارهم تنطق مئات السنين، وجعل المسلمين يرفلون بما صنعوا جيلاً بعد جيل.

لقد تفنن جيل المسلمين الأول في المسموع، فأتوا بجميل الشعر والنثر، والدواوين شاهدة، وألوف كتب الأدب.

كما تفننوا في المنظور بهدف تربوي، ولقد أدركتْ آداب الشرع ذلك فنطقَتْ بفضل المنفق علانية، من أجل الاقتداء، وكانت المبارزة بين الصفين، تحصيلاً لتأجج الحماسة. بل مثلوا التمثيليات الصامتة الهادفة، كذاك الذي بنى لنفسه وفرسه حصناً صغيراً بباب الكوفة ورابَط فيه، وكانت الفتوحات في زمنه قد بلغت وراء بخارى وسمرقند حتى ليظنه الظان مرائياً، لكنه كان يتعمد ذلك ليشاهده أهل الكوفة ومن يدخلها، فيتذكر معنى الجهاد.

وكان عمل آل زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي ضمن سياق الإبداع الذي نتحدث عنه. ثم عمل الظاهر بيبرس وقطز وصاحبهما الأمير البطل حسام الدين لاشين، الذي كان في غاية الكرم والشجاعة، حتى أنه تعرض بألف فارس معه لاثني عشر ألف فارس من التتر في غزوهم الشام، فأبادهم عن آخرهم.

• ثم أعمال السلطان محمد الفاتح في فتح القسطنطينية، ومن سبقه وتلاه من سلاطين آل عثمان كانت أعمالاً إبداعية ضاربة في عمق الإبداع، وبأبي وأمي نفير مراد الرابع بجلد النمر من فوره لاستخلاص بغداد من الصفوي المفسد حين سمع احتلاله لها.

• والإبداع في مجال العلم كذلك، وليس أوله إبداع الشافعي في تدوين أصول الفقه عبر (الرسالة)، وإبداع البخاري في تجريد الحديث الصحيح عن الضعيف، وإبداع السرخسي في جمع شوارد أقوال أبي حنيفة وأصحابه، حتى إني لأظن أنه لم يخرم منها حرفاً، وإبداع علماء قواعد الفقه في رؤية الأشباه والنظائر، وإبداع القرافي في الانتباه للفروق، وإبداع ابن تيمية في التجديد والإحاطة والمقارنة، حتى تركها مدرسة مسلسلة مازالت دائبة التأثير حتى هذا اليوم.

• ومثل ذلك إبداع فؤاد سزكين الآن في مجال تاريخ العلوم الإسلامية والكشف عن إبداع أجيال المسلمين في أبواب الفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات والطب والصيدلة، حتى غدت

المخطوطات التي عرّف بها وروّج لها شمساً ساطعة شاهدة لفضل الحضارة الإسلامية على الإنسانية.

وقصص السلف في صناعة الحياة كثيرة، ولكن يليق أن نتجاوز رجال الصدر الأول والأوسط، لما أظنه من وضوح أدوارهم، وأن نأتي إلى النماذج من رجال العصر القريب، نتعرف على إبداعهم.

## السنان اللامع

• منهم الفنان المبدع، شيخ المهندسين في العصر العثماني: سنان باشا فقد كان رحمه الله من صناع الجمال، وتمكن من طباعة التفاعل في نفوس المسلمين مع المعايير الجمالية.

وأستحسن أن نرافق مؤلف كتاب (فنون الترك وعمائرهم)[1] في استعراضه لدور سنان، لنرى كيف (ظفر عهد السلطان العظيم سليمان القانوني (أزهى عصور الإمبراطورية العثمانية) بأحد قمم العالم عباقرته، وهو المهندس سنان، الذي ولد عام ١٤٨٩ في قرية اغرناس قرب قيصرية.... وبعد انتهاء مدة تعليمه العسكري حارب كإنكشاري في حملة بلغراد ١٥٢١، وساهم في حملات سليم الأول على بلاد فارس والشام والعراق ومصر، وزار البلقان

---

(١) تأليف: اوقطاي آصلان آبا، ترجمة: أحمد محمد عيسى، نشر: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. استانبول / الصفحات ١٩٦ إلى ٢٠٣.

والمجر وجنوب النمسا، . . . وكان اختياره كبيراً للمهندسين حين بلغ الخمسين , وفي تلك اللحظة كان سنان قد شيّد ٣٦٤ بناء على أراضي الإمبراطورية وفي وقت قصير. . وكان يفحص بعناية المنشآت في البلاد التي يزورها، ويمزج بين الملاحظات والأفكار المختلفة التي يلتقطها من هنا وهناك وبين التقاليد المعمارية التركية، وكان سنان أستاذاً كبيراً في بناء القباب وفي تنسيق المساحات، وعبقرياً باقتدار ونجاح في تصميم القباب المركزية التي كانت الأمل والمثل الأعلى عند معماري عصر النهضة في إيطاليا.

(قام سنان في أول أعماله باستكشاف ما يمكن أن يعطيه الفراغ المتاح، آخذاً في الاعتبار استمرارية التقاليد المعمارية العثمانية التي ظهرت في أزنيق وبورسة وأدرنة. ففي عام ١٥٣٧ بنى مجمّع الخسروية في حلب لخسرو باشا والي دمشق، وهو بناء جدير بكل تقدير، باعتباره طليعة أعماله. . وقد سمح للمسجد أن يبرز بوضوح وأن يكون مع ما حوله وحدة متكاملة. والحقيقة أن هذا المجمع الصغير الحجم قد ساير بنجاح الموقع الذي أقيم عليه.

وتظهر أهم مراحل عبقرية سنان المعمارية من خلال ثلاثة آثار عظيمة هي: مسجد شهرزاد، ومسجد السليمانية، باستانبول، والسليمية بأدرنة.

بدأ العمل بمسجد شهرزاد عام ١٥٤٤. . ونرى فيه المحاولة الأولى لسنان في معالجة مشكلة نصف القبة، وكيف تجاوز بمحاولته

مشاكل قباب أيا صوفيا وبا يزيد ابتكر النموذج المثالي للمبنى ذي القبة المركزية وأنصاف القباب الأربعة الدائرة حولها، وسنان بهذا العمل يكون قد حقق أحلام مهندسي عصر النهضة.. وكان بناء هذا المسجد بأمر من سليمان القانوني تخليداً لذكرى ولده الأكبر وأثيره شهرزاده محمد.)

(ومن التجديدات التي ظهرت عند وضع تصميم أنصاف القباب - أي في مسجد شهزاده الذي أمام بلدية استانبول - أنها أقل قليلاً من نصف قبة كاملة، وأن الدعائم أكثر رقة بفضل التصبيعات والتضليعات التي عملت بها.. أما الشدروان وبوائك[1] الصحن المحيطة به وقبابها الست عشرة وأعمدة البوائك الاثنى عشر، فقد كوّنت توليفة لاتقل في تناسقها وانسجامها عن تناسق وانسجام المسجد، كما أنها

تندمج معه عضوياً وتكون وحدة لها منظور معماري قوي التأثير. وتحويل الممرات هنا من داخل المسجد إلى خارجه أضفى على الداخل مزيداً من الترابط والروحانية، ولطف من جمود الكتلة البنائية من الخارج.)

---

(١) في المعجم الوسيط: البائكة: النخلة الضخمة، وعلى ذلك فإنها استعارة لوصف الأعمدة المربعة الضخمة.

(وبدأ العمل في مسجد سليمان العظيم ومجمّعه واستمر سبع سنوات انتهت بعام ١٥٥٧، وكان سنان في هذه السنة قد تجاوز الستين من عمره، وفيها أيضاً يتحول سنان للمرة الأولى إلى فكرة تخطيط المسجد ذي نصفي القبة. . ويجتهد سنان في الوصول إلى أنجح النسب لإقامة المسجد الجديد من

خلال دراسة متأنية ودقيقة لكل من كنيسة أيا صوفيا ومسجد بايزيد معاً، وقد اشتمل مجمّع سليمان القانوني على أكبر وأول جامعة منذ زمن محمد الفاتح، كما اشتمل على ١٨ مبنى. . ونسق كل هذا بأسلوب جديد كل الجدة وبمفهوم واع لنظريات بناء المدن، جوهره الاستفادة المثلى من مدرجات الربوة التي تشرف على القرن الذهبي. . وجعل قطر القبة الرئيسية ٢٦,٥ متراً وارتفاعها ٥٣ متراً، وهي أكثر قباب استانبول ارتفاعاً بعد أياصوفيا. . وإذا كان

الداخل إلى المسجد يمتلىء بطمأنينة روحية وإحساس باللانهائية فما ذلك إلا نتيجة لارتفاع القبة الشاهق.)

(وبعد كل التجارب العديدة في منشآت صغيرة نسبياً: أبدع المهندس سنان وهو في الثمانين من عمره مسجد السليمية في أدرنة، واشتمل هذا المسجد على كل الابتكارات والتجديدات التي استحدثها سنان، بالإضافة إلى مستحدثات العمارة التركية جملة. وقد وَصَفَ مسجد السليمية بأدرنة بأنه يمثل رائعته المعمارية، وقد

استغرق بناؤه خمس سنوات من ١٥٦٩ إلى ١٥٧٤ ، ويمثل المسجد الرمز الحي لمدينة أدرنة ولامبراطورية آل عثمان كلها ، وكان إنشاؤه بأمر من السلطان سليم الثاني ، ويظهر هذا الأثر متجلياً من بعيد بقبته الكبيرة ذات القطر البالغ ٥ , ٣١ متراً أي أكبر من قطر قبة أيا صوفيا . . . ويمكن اعتبارها قمة التطور في بناء القباب في العالم بأسره) . (وتغطي المسجد كله قبة واحدة تحيط بها امتدادات من كل جانب ، وهذه الرحابة الواضحة تملأ نفس الداخل إلى المسجد بإحساس مريح ويكاد يشعر بقوة سحرية تحمله إلى عالم بعيد .

وتستلفت النظر من بعيد مآذن المسجد الأربع التي تكوّن مع القبة وحدة واحدة يسودها الانسجام والتوافق ، ويتدرج المبنى في ارتفاعه ، أربع درجات واضحة ، تستقر القبة في نهايتها في اطمئنان وتناسق ، ويطغى على الواجهات نضج معماري وأناقة في النسب . . )

توفي سنان سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م ، رحمه الله .

أفما ترى معي أن المصلين عبر أربعمائة سنة في مساجد السليمية والسليمانية وشهزاده قد اتعظوا بمعاني التناسق والتدرج بمثل ماوعظهم به كلام وعاظها؟

أوَ لاترى أن صلة القربى والأنساب الواحدة تجمع المصري حسن فتحي والعراقي رفعت الجادرجي بسنان رحمه الله؟

وأشهد أن من أوائل من نبّه إلى هذا أخ مثقف صديق لنا ، هو الدكتور مهدي صالح السامرائي رحمه الله ، الأستاذ المساعد بجامعة بغداد في تدريس الأدب العربي ، وكان من أقراننا ، فقد فطن إلى مثل هذه المعاني في وقت مبكر يوم كنت غير بريء من اليبوسة ، وكان يعارضني ، ثم أقررتُ نظراته ، وله فضل السبق رحمه الله .

وأنا أرى اليوم أن من تمام منهجية التربية القيادية في إعداد صناع الحياة بعد العلم وسماع التجارب هو التجول والسياحة لرؤية روائع العالم الإسلامي ، ليزدادوا ذوقاً وحساً جمالياً هما من مدارج الاجتهاد .

## ثُلُثٌ... لكنه تام... ومُعَلّقٌ... لكنه مُسَيطِر

وسلسلة الخطاطين صنعت الحياة .

وهي من أيام ابن البواب وابن مقلة ، مروراً بياقوت المستعصمي ، وانتهاء بتلامذة هاشم في بغداد ، عبد الغني وصلاح شيرزاد ونزار الدوري وغيرهم ، وتلامذة تحسين الخطوط بالقاهرة ، وعُصبة نشأت مؤخراً باستانبول .

• وعلي ندا الدوري في معهده بالشارقة : (معهد الخط العربي والفن الإسلامي) إذ يلقن الناس معايير الجمال ويغرس في القلوب موازين التناسب : هو أخو المتبتل في محرابه إذا لقّنهم آداب الإخبات .

• والدكتور القانوني الفنان عبد الغني عبد العزيز العاني، تلميذ هاشم الأول، هو بباريس اليوم سفير للحضارة الإسلامية تلقاء الغرب، ومترجم لأذواق الإيمان وخلجات قلوب الموحدين، ولستُ أري بُعداً بعيداً بين قطرة من مِداد قَصَباته من دم شهيد في ترك الأثر الحيوي.

• و(كان ياقوت الأماسي - من أماسية - خطاطاً تركياً يعمل كاتباً لدى المستعصم - ٤٢ إلى ١٢٥٨ م - آخر خلفاء بني العباس. وقد استفاد هذا الخطاط من استخدام قلم مقطوطة بِمَيْل في كتابة النسخ والثلث والجلي، وبهذا يكون قد تحرك خطوة في طريق جديد. ولقي خط النسخ على يد ياقوت: الروح التي جعلت منه حقيقة نمطاً كلاسيكياً. وحدث الشيء ذاته لخط الثلث، الذي ظل يكتب بطريقته وأسلوبه دون تغيير يذكر لمئات من السنين، وقد تحوّل هذا النمط على يد ياقوت إلى نوع من التحليل التشريحي، وأعطاه، من خلال تفاصيله الدقيقة: أنسَب الأشكال وأكثرها ظَفَراً بالقبول. ويعتبر ياقوت هو الذي أرسى القواعد الصلبة لفن الخط عند الأتراك، بترسيخه كل الأصول والصفات المميزة لستة من أنماط الخط العربي المختلفة وهي التي عرفت فيها بعد باسم: الأقلام الستة).

• (وفي القرن الخامس عشر: مارسَ الشيخ أحمد حمد الله وهو من أماسيه أيضاً، كتابة الأنماط الستة السابقة، ووضع لها قواعد

على أسس محددة تتصل بنسَب جسم الإنسان وقواعد تشريحه، وأصبح حمد الله بهذا أستاذاً لكل الخطاطين في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأطلق عليه لقب: قبلة الخطاطين).

(وقد مات الشيخ حمد الله عام ١٥١٩ . . . وكتب الشيخ عدداً من المصاحف ومئات من المخطوطات، وأعطى فن الخط العثماني عموماً شكله الكلاسيكي، وقدرته على التأثير واحتفاظه بالحيوية، تلك الصفات التي لازمته عدة قرون وحتى يومنا هذا).

• (ثم طور أحمد القره حصاري خط الجَلي في القرن ذاته ومع أن جانباً من أسلوب القره حصاري مشتق أساساً من ياقوت الأماسي أو ياقوت المستعصمي، إلا أنه يمكن القول فيه أن خطه كان أجمل من خط ياقوت . . وفي عام ١٥٥٦ توفي القره حصاري، وكان قد بلغ التسعين).

• (وفي القرن السابع عشر يبلغ فن الخط العربي آفاقاً جديدة في مجال إضافاته الفنية، من خلال أعمال حافظ عثمان المولود في استانبول ١٦٤٢ . . وطور حافظ خط النسخ وبسّطه وأحسنَ تنسيقه ليكسبه وضوحاً أكثر في القراءة، وكان نضجه سريعاً في هذا المجال، وكان متدفقاً، حتى لقد سُمي أسلوبه في الكتابة - وفي النسخ خاصة - بالأخّاذ، كأنه شرارة تخطف الأبصار. ومن خلال الخطوات الزاحفة لكل من ياقوت والشيخ حمد الله وحافظ عثمان: تتمثل الفترة الرئيسة لرسوخ خط النسخ والثلث).

• (وأدخل حافظ عثمان نوعاً من الحرية على فن الخط لم يكن معروفاً من قبل.. ومات حافظ عام ١٦٩٨ وهو في السادسة والخمسين.. ولحافظ ٢٥ نسخة من القرآن الكريم ونقلت المصاحف التي طبعت وكانت بخطه شهرته إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي وحتى بلاد الهند وأندونيسيا).

• (وقد أضفت الابتكارات التي أشاعها مصطفى راقم في خط الجلي كثيراً من الحيوية، فنجد فيه تكوينات مختلفة للحروف، غيرت باستمرار من أوضاعها وملامحها، وبلغ أسلوبه في هذا النمط غاية الكمال بأقل ما يمكن من الشكل والاعجام والزخرفة، وبهذا يكون قد حرّر الحرف من جموده النمطي الذي استمر عليه في المرحلة الكلاسيكية، وإننا لنلمح في كل عمل من أعماله ابتكاراً رصيناً للحروف. وكان راقم بالإضافة إلى هذا عبقرياً في عملية الترتيب والتجميع، وهي التكوين المنسجم الذي يضفيه على هيئة الحروف والكلمات والأسطر معاً، وباختياره لمثل تلك التشكيلات ذات التوليفة المتناسقة المنسجمة يكون راقم قد نشر حول الخط نسمة من الجمال والكمال.

إن تشكيل نص من النصوص ليظهر في مساحة معمارية ليس أمراً سهلاً، وإنما هو من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى قدرة وموهبة وإحساس فني رفيع).

(ولما كان راقم خير من يمثل الإدراك العالي للحركة الجمالية فقد أصبح في نظر الخطاطين أول مَن يَسعون إلى تقليده ، وهذا سبب تزايد عدد الفنانين الذين آمنوا بقيادته) .

• (ثم هناك محمود جلال الدين ، الذي يختلف عن راقم ، والمتوفى عام ١٨٢٩ . وهناك زوجته وتلميذته أسماء عِبرت ، التي كانت على درجة من المهارة كزوجها تماماً .

ابتكر محمود جلال الدين أسلوباً مستحدثاً هو الآخر . . وكان لأسلوبه من الحيوية والرسوخ مثلما كان لحافظ عثمان وإذا كانت كتابات راقم تمثل القوة والحيوية ، فإن كتابات محمود جلال الدين توحي بالسكينة والجمال) .

• (ومن مشهوري القرن الثامن عشر أيضاً : محمد أسعد يساري ، أحد أساتذة التعليق ، الذي كانت له إضافات فنية واضحة ، والذي أنتج أعمالاً مبتكرة لانظير لها . ونرى كتابات هذا الخطاط في كل ركن من أركان استانبول ، ومن ذلك لوحاته العديدة في معظم بيوت أهلها . وترسّم الابن والتلميذ يساري زاده عزت مصطفى خطوات الأب ، فارتفع بخط التعليق إلى أعلى مراتبه . واكتفى مَن جاء بعد ذلك من الخطاطين بهذا الاسلوب ، وقنعوا منه بالتقليد ، وأصبح خط التعليق هو الأسلوب المختار بين أهل العلم في

استانبول، وكتبت به الأعمال الأدبية وأشعار البلاط وسائر المنظومات)[١]

• ومن شهيرات النساء المبدعات ببغداد أواخر القرن الماضي: الخطاطة صالحة النقَشْلي رحمها الله، ولها مصحف بخط الثلث يعتبر من روائع الفَن، وهو محفوظ بمكتبة مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني.

• و(يبرز بين الخطاطين الإيرانيين اسماً: أبي الفضل الساوَجي، ومير عماد. اللذين كان مشهوداً لهما بالإبداع والتفوق.

كذلك يشار إلى نور الدين محمد اللاهيجي، الخطاط الإيراني الآخر الشهير، الذي كان معروفاً باسم: نورا، ويُلقب: خوشنويس، أي الحسن الخط، والذي كان من تلامذة ميرعماد الممتازين. وقد بقي قسم من كتاب جوامع الحكايات للعوفي بخط نورا، ذكرى منه).[٢]

وورثهم بإيران مشكين قلم، وغيره.

• وقد سلّم الأمانة العصبة الذين أدركناهم وماتوا من قريب: حامد الآمدي باستانبول، وهاشم محمد البغدادي، وسيد إبراهيم

(١) نقول من كتاب فنون الترك وعمائهم، ص ٣١٠-٣١١.

(٢) من كتاب: نظرة على الجمهورية الإسلامية الإيرانية، نشر وزارة الخارجية الإيرانية ص ٨٩.

بالقاهرة، وبدوي بالشام، وكانوا عمالقة، وكلهم ساهم في صنع الحياة.

## المبدعون منّا... آل الدعوة

إن علينا أن لا ننظر بالمنظار الضيق فنشترط أن يكون المبدع المسلم معنا وفي صفنا لكي نحتفي به ونعترف ونروّج له، بل كل مبدع هو من صناع الحياة الإسلامية، ومن تمام أمرنا أن نفرح به ونقدمه، لأنه سيخدم توجهنا الحضاري ويساعد على غرس الأذواق في الناس ومعاني الاعتدال وحب الجمال، ولربما حجبته عنا شبهة عارضة ستزول، أو زوجة سافرة ستتوب، والحواجب كثيرة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الإشاعات، وهمَم الناس مراتب، وأهل الستر أقرباؤنا، وجدير بنا أن نجعل النتاجَ الفني للخطاطين المستوين ومَن على شاكلتهم من المعماريين والقصاص والأدباء والآثاريين وسيلة في أيدينا في تعليم الناس صنعة الجمال، فالمدرس منا يذكرهم في محاضراته، والصحفي منا يكتب عنهم، والذي هو مدير جمعية منا أو مركز يقيم لهم المعارض ويوطىء لهم المنابر في المناسبات الثقافية، فتتعدد عندنا بذلك عوامل التأثير التربوي في الناس، ونضيف بها ركناً سانداً في صرح الحياة الإيمانية والهيكل الحضاري الإسلامي، ولسنا نريد تحويل الدعوة إلى هندسة سنانية وأحرف هاشمية، وإنما نحن نضرب أمثلة لسعة آفاق الحياة وصَلتنا بها وصِلتها بنا، وبيان

مهمتنا في إصلاحها وتجميلها وتمدينها، وأن هذه المهمة الدعوية الحضارية لايمكن القيام بها إلا بإعداد حضاري للداعية المسلم يمنحه الشمول ورحابة الأفق، ويتركه صابراً طويل النَفَس مسترسلاً مع عملية بنائية علمية فكرية فنية نفسية ممتدة من ناحية الزمن امتداداً مستقبلياً عميقاً يزهده بالفورات العاطفية المجردة، ويحيد به عن الاستعجال والقفز والتسلّل الجانبي، وإنما يواجه الحياة بثقة، وجهاً لوجه، مُبرزاً صدره، غير آبه بالتُرهات والعوائق والمساومات والإغراءات وسخافات الطواغيتً، ويمضي في البناء بخطو ثابت، ويد متينة ترفع، ونفس شامخة تحلّق، إذ الجبابرة يهدمون أركان الحياة، ويكممون الأفواه، ويضيفون على المبدعين، فإن الناس تميز الهدم من الصناعة وهي مع الأحرار في النهاية، ومع كل بَنَّاء.

## المنصورُ بَنى.... وحفيده حَفظ

وصنع عبد الرحمن السويدي الحياة ذات يوم، سنة ١٧٧٦ والسنوات الأربع التي تلتها. وهو ابن عالم بغداد عبد الله السويدي الذي خرج إلى (مؤتمرالنجف) المشهور لمناقشة علماء السوء الذين غزوا العراق بمعية الشقي نادر شاه ملك العجم. وآل السويدي هم من ذرية الخلفاء العباسيين، ويرتقي نسبهم إلى هارون الرشيد.

وكان عبد الرحمن من العلماء أيضاً، ورأى فراغاً سياسياً ببغداد بعد نكبة طاعون أراد أحد كبار موظفي الإدارة العثمانية اغتنامه،

واسمه محمد عجم، وهو من النكرات المتصلة سراً بشاه العجم، واستطاع بحيلته إيهام أهل بعض الأحياء البغدادية فانحازوا له، فأدرك عبد الرحمن الخطورة، فانتفض، وقاد أهل الكرخ وحي الشيخ عبد القادر الكيلاني وغيرهم، وثبّتهم، وخاض بهم معارك موفقة ضد هذا النكرة وشراذم المرتزقة الذين تعاونوا معه، من شارع إلى شارع، وعلى جِسر بغداد، حتى كتب الله له النصر، وحُفظت بغداد من الأيادي العابثة بوقفته الإبداعية ومبادراته الذاتية ولَمعته الاجتهادية. وقد دَوّن ملحمته البطولية بنفسه في كتاب (حوادث بغداد والبصرة) الذي حققه وطبعه ببغداد الدكتور عماد عبد السلام رؤوف، وأرى أن يقرأ كل داعية هذا الكتاب ليتعرف على نموذج فذ من صناعة الحياة وكيف تكون، ولعل مخرجاً سينمائياً يخرجه للأمة في فلم طويل أو حلقات تلفزيونية متتابعة تكون فيها نعم الموعظة والجواب لدعاة يسألون عن معنى الإبداع.

إن قصة عبد الرحمن السويدي مَثَل للبطولة، ونموذج للإبداع وسرعة الاستجابة للمتطلبات وعمق تحسّس الخطر، وقد برهن على أن صناعة الحياة لا تنتظر إذناً من أحد، فقد فرض نفسه، ويروي في أول كتابه كيف أن مؤامرة محمد عجم لما بدأت سببت له نفضة، ويقول: فلما كادت الولاية أن تكون لهذا الفاجر قلتُ: والله ماينبغي هذا ولايصح، فشمرت عن ساعد الجد، وكلّمت أهل المحلة...

فانظر عنصر المبادأة فيه، وردّة الفعل الإيمانية، والمبادرة، والثقة بالنفس، والتكليم والحث، والدق على الصدر، وقد أهّله كل ذلك أن يكون قائداً لأهل بغداد . . .

## مَلِكانِ.. وأميرٌ... ووزيرٌ.. ووافٍ

وكان حيدر آباد ملك الدكَن بالهند من صناع الحياة أيضاً فإنه إضافة لملوكيته: كان له دورَ في إسناد الوجود الإسلامي في الهند وانتشار الإسلام هناك، ولربما كانت له أخطاء أو انتابه نقص أو لم يبرأ من ظلم، ولكن خدماته تبقى أكبر وأظهر وأثقل في الميزان، وتهمة البخل التي تقال عنه إنما هي دعاية مضادة هندوكية، ولو لم تكن له إلا رعايته للنهضة العلمية الإسلامية هناك لكفاه ذلك، وبتشجيعه قامت دائرة المعارف العثمانية بالدكن بأداء دورها المهم في طبع أهم الكتب في الفقه والحديث واللغة بعدما كانت مخطوطاتها نادرة، ولهذه الدائرة قصب السبق في هذا الباب، وعملها مبكر جداً وفيه إبداع عظيم.

• ومثله، بل أظهر منه وأجل وأعلى كعباً: صديق حسن خان، العالم السلفي النقي الذي خَطَبَتْه مَلكة بهوبال بالهند لنفسها، فتزوجها وصار شريكاً لها وموجهاً ومستشاراً في حكم بهوبال، وذلك أواخر القرن الماضي، وقال: ووجدتها حَسَنة الخَلق والخُلق. وقد منح صديق خان اهتمامه ووهب حواسه للعلم الإسلامي

وترويجه، فكان يؤلف ويطبع ويوزع مجاناً، ويطبع لغيره، ويراسل ويشجع، حتى استوى من كبار صناع الحياة.

وقد تقول: هؤلاء ملوك، تقيسني بهم؟

فأقول: نعم، هم ملوك لكنهم لم يخرجوا إلى بطر ولم ينسوا مهمتهم الإيمانية. وهاهنا يكمن فضلهم، وأريدك إن جَعَلك الله تعالى في مكان الجاه وملك المال والصدارة والسطوة أن لا تنسى مهمتك كذلك، وأن تلبث على سنن التواضع، لاكما فعل فلان: وَعَد، فتمكن، فنسي!

• وكان الأمير عمر طوسون من صناع الحياة الإسلامية أيام فؤاد ملك مصر وقبله، وهو من عائلته، ولكنه عفيف معروف بالحميّة الإيمانية، وكان وحده يقوم بما تقوم به الآن جمعيات الإصلاح وصناديق الزكاة والمؤسسات الخيرية، فما أن تكون هناك حاجة لإغاثة إسلامية في أنحاء العالم الإسلامي حتى يتصدى لجمع المال وإرسال المعونات والنجدات، وقد خلّد شكيب أرسلان ذكره في أكثر من مكان من كتاباته، رحمه الله.

• ومن أصحاب الوزارة والنبل بداغستان: حيدر بامات رحمه الله، وقد هاجر إلى باريس بعدما عاث البلاشفة فساداً ببلاده، فكان وجوده الغربي مُميَّزاً، وطفق يناضل المستشرقين وشبهاتهم، ويتغنى بالإسلام دهراً في بلاد الكفر، ويتصدر الدفاع عن الإسلام،

ويُعَرِّف بالقضايا الإسلامية، ويتصل بالزعماء والعلماء والنبلاء، حاثّاً ومشيراً وناصحاً، إلى أن توفى من قريب.

• وممن ساهم في صنع الحياة الإسلامية بصمت وتواضع: علي عبد الواحد وافي، الأول بين العرب في الدراسات الاجتماعية، وله الدور الوافي - كاسمه - في حفظ مجال علم الاجتماع بمصر بريئاً من الإلحاد أو تقليد النظريات الغربية، كما حدث في بلاد أخرى، فقد كان الرجل إسلامي المنطلق وترك أثراً حسناً، وما أحسب له نقصاً سوى عجزه عن إدراك ما يجري في إيران من صولة البدعة، ولكن مناقبه تبقى أكبر، وهو أبو الاجتماعيين العرب، ويمثل مدرسة كاملة ومنارة شامخة.

وغيره وغيرهم، وإنما أوردت نماذج فقط لئلا يطول عليك الكلام، ومازالت الأروقة الإسلامية بخير وفيها من يبدع ويصنع الحياة على نمط من الأنماط، من بطل يجاهد اليهود سراً يخطط وينفذ، أو ثابت على ذرى جبال الأفغان، أو مؤسس مع آخرين لمصنع أو مزرعة، أو مُزاحم في السوق للغرباء وأبناء السوء يستورد ويصدر ويحفظ المال للأمة، أو متربع يعلّم الناس العلم، أو صابر بين رفوف المكتبات وأكوام المخطوطات، في عشرات أخرى من أشكال الصناعة الصامتة والناطقة.

• وصنع زهير المنصور الحياة يوم لم تكن له غير خطوة واحدة. صنعها يوم ألّف كتابه في الإبداع، فكان مبدعاً بانتباهه إلى معنى الإبداع.

# وللآخرين بذل

وصفة صناعة الحياة مطّردة عند الملل الأخرى وغير المسلمين، سواء بسواء، يقود الحياة الذكي والصابر والماهر وكل مبدع متفنن مبادر.

فالحياة في أمريكا مثلاً إنما تقودها الصفوة التي فيها، وليسوا الذين نراهم يصفقون في المسابقات التلفزيونية، ولا الذين يتسكعون وتدمرهم المخدرات، بل هم نخبة من أساتذة الجامعات وأعضاء مراكز البحوث، ومدراء الشركات الكبيرة ومدراء البنوك، ووكلاء المخابرات الداخلية والخارجية، والأعضاء الحاليين والسابقين في الكونجرس، وكبار القضاة والمحامين، وعناصر المافيا، ورؤساء النقابات، ورجال البيت الأبيض، وعشرة في السيتي بنك وتشارتر بنك، وتسعة في مقر أرامكو، وثمانية في دهاليز بنك النقد الدولي، وسبعة من رؤساء تحرير الصحف، وستة من رؤساء الجمعيات اليهودية والماسونية، وبقية المائتي مليون يعيشون على هامش الحياة، همهم البطون والجنس، وتجدهم بين رفوف السوبرماركت أو أمام التلفزيون، أو في زاوية من مطاعم ماكدونالدز.

إن خمسين ألفاً فقط هم الذي يوجهون مسيرة أمريكا الحضارية، سياسياً واقتصادياً وعلمياً وعسكرياً ونفسياً، والبقية تتبع.

وهذا الشأن في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والاتحاد السوفييتي، والصين، واليابان، والهند.

• وهذا هو الشأن على مدى التاريخ من أيام روما، يوم أحاطت حاشية القيصر به غادرة وطعنه الطاعون، ومعهم بروتوس صديقه ووزيره الذي ظنه فوق الغدر، فقال قولته الشهيرة: حتى أنت يا بروتوس؟

جملة واحدة ألهبت مشاعر العامة فانتصرت للقيصر وتألمت له، ولكن فصاحة انطونيو بددت تأثرهم وآلامهم، وخَطَبَهم خطبة قلبت موقفهم في دقائق معدودة، وإذا بهم يهتفون له وقد كانوا قبل قليل يريدون قتله.

تلك الخطبة وتلك الفصاحة وذلك التلاعب بالمعاني من عناوين صناعة الحياة، وقد آن لنا أن نفهم سر الحياة.

• وتمر ألوف السنين ليقف هيوستن في حدود سنة ١٨٣٠ أمام الكونجرس الأمريكي ويخطب خطبة بليغة لم يستعمل فيها كلمة مرتين، فسحر ألباب الرجال الذين أمامه، وكان قد نجح لتوّه في تسكين ثائرة الهنود الحمر وجَلبهم إلى توقيع اتفاقات مع الحكومة، فاستدعاه الرئيس الأمريكي آنذاك وقال له: إن تكساس تتبع

المكسيك ومستقبل أمريكا متعلق بها، ولابد من ضمّها، وأُريدها منك.

فقال هيوستن: نعم أنا لها، زودني بمال ورجال.

قال الرئيس: لو كان عندي مال ورجال ما دعوتك، بل تذهب منفرداً وبلا دولار واحد، وأبعثُ معك حارساً حتى تعبر نهر المسيسبي ويعود.

ومع ذلك قبل المهمة، وودعه الحارس على ضفة النهر، واندفع نحو تكساس، فلما دخل أول مدينة بها فتح له مكتب محاماة، فكان المدعي في المحكمة يخرج متهماً والمتهم بريئاً، لبلاغة وقوة لسانه، حتى انبهر به الناس، فلاثوا به، فتلاعب بمفاهيمهم وأخيلتهم، وغرس فيهم معنى ضرورة الاستقلال عن المكسيك، وأنشأ حركة قوية أتمت الاستقلال، ثم غرس معنى وجوب الانضمام إلى الولايات المتحدة، فانضمت طواعية بالقناعات التي غرسها هيوستن، وجاء بعد سنوات قليلة إلى الرئيس الأمريكي وسلّمه مفتاح تكساس، إذ لم تطلق طلقة أمريكية ولم يصرف دولاراً، فشكره الرئيس، وخلّدوا عمله بإطلاق اسمه على مدينة هيوستن التي هي الآن من أهم مدن أمريكا وعاصمة النفط فيها.

فهكذا صناعة الحياة حين تكون، وهكذا البلاغة والفصاحة تصنع ما تصنع.

• ثم لورنس، الجاسوس الإنجليزي وملك العرب غير المتوج، حين صنع الحياة على نمط آخر، بالدأب والصبر وقطع الصحراوات على ظهور الإبل وهو ابن الثلج، وقد أدى وحده ما يؤديه جيش كبير، وقاد الأعراب حتى أنهك الجيش الإسلامي العثماني، وبسط النفوذ البريطاني على فلسطين، وكان دوره في ذلك أعظم من دور الجنرال اللنْبي الذي قاد الجيش البريطاني في حملته من مصر على فلسطين، ثم حاز لورنس دمشق، وظل يُنهك الجيش العثماني حتى استسلم بعد ذلك قرب حلب.

وخدع لورنس نفراً من الضباط العرب في الجيش العثماني، فكانوا معه في مسيرته تلك من الحجاز إلى حلب، ومن أبرزهم نوري السعيد الذي لعب أهم الأدوار في السياسة العراقية بعد ذاك حتى مقتله سنة ١٩٥٨.

• والمستعجل يظن نوري السعيد هذا مجرد خائن، وهو كذلك، ولكنه من صناع الحياة، وكان جَلْداً ذكياً يقظاً مثابراً، وحاز علماً وثقافة عامة مكّنته من أداء دوره، ولم يكن من اللاهين، وإنما كان ينهل من المصادر العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية، ولقد رأيت مكتبته بقصره يوم مقتله وقد استبيحت وتبعثرت، فكان فيها مايدل على سعة اطلاعاته، حتى الشعر كان له فيه حصة وهو السياسي المنشغل، وقد أخذتُ ورقة من ديوان ممزق للشاعر التركي نامق

كمال عليها ملاحظة لنوري ، وقرأت مؤخراً محاضراته التي ألقاها على طلاب كلية الأركان العراقية عن المعارك التي خاضها خلال الثورة العربية بمعية لورنس ، فازددت قناعة لايشوبها شك في أنه كان من كبار صناع الحياة ، لكنه فاجر ولقد فار دمي إذ أنا أقرأ ما فعله بالمساكين من ضباط وجنود الجيش العثماني ، وبعضهم عرب ، ولكن غليان دمي ما ألغى حقيقة كونه من صناع الحياة المثابرين ، وماكان من النائمين ولا المبذرين لأوقاتهم ولا الجاهلين .

وعندي خبر المئات غير نوري ممن بنى الحياة العلمانية بسهر الليالي والمعارك والسجون والبذل ، وآخرين من الأذكياء المبدعين ، لكني في موقف التمثيل لا تدوين التاريخ والحر تكفيه الإشارة ، وتذكّر أن الحركة الشيوعية بدأت بكارل ماركس ، وأن الحركة اليهودية الحديثة بدأت بمؤتمر حكماء صهيون وبتطوير هرتزل لها .

إن هذه القصص الإسلامية والجاهلية للأجيال التي ساهمت في صنع الحياة فيها مواعظ ودروس ، وهي برهان لكل داعية على أن الحياة يملكها من يصنعها ويبذل ويجمع العلوم ويتعلم الفصاحة ، على الإيمان كان أم على الفجور والعصيان ، ثم هي بلاغ لكل داعية أن يُشَمِّر ، وأن يسهر ، وأن يبكّر ، وأن يبتكر ، وأن يبادر .

إن حمل عقيدة ما يولّد قضية تربوية في الدعوة إليها والثبات عليها ، وهذه القضية التربوية تولّد مواقف سياسية وسيرة مبدئية

وتيارات عاطفية عارمة لايمكن أن يصدها عن هدفها صاد، فالمال يُبذل، والأرواح تُزهق.

وكذلك تكون الحياة، وكذلك تُبنى من خلال التحدي والصراع.

لقد جعل انطونيو أهل روما يلعنون قيصر إذ مازالت جثته مضرجة بدمائه.

فما الذي مكّن انطونيو أن يخطب خطبته تلك؟

ولو كان جالساً في بيت أمه هل كان سيستطيع أن يخطب بتلك البلاغة؟

إن أمه ربما كانت تخبز له، ولكنها لاتعلمه الفصاحة، وإنما تَعلمَ الفصاحة من مشافهة الرجال والدرس على علماء اللغة، وعلّمه التجوّل والاختلاط والعيش في البيئة الساسية، فلما خطب: عَرَفَ كيف يخطب وكيف يتلاعب بالمشاعر، وكيف يدغدغ العواطف، فيقلبهم من موطن النقمة عليه إلى موطن التأييد له.

وبين انطونيو وفصحاء العرب الذين روى الأصمعي والفرّاء خطبهم أجيال عديدة، وكلهم على هذا النمط.

وبين خُطب العرب وخطابات هيوستن وعلي شريعتي نَسَب، ويجمعها جذر واحد، ثم الجميع وانطونيو أستاذهم هابيل في بدء الحياة البشرية حين خطب خطبته العاصمة وقال: إني أخاف الله رب العالمين..

## استدراكات وشروط

قد وضح الطريق، وتأكد أن برج السيطرة هو الذي يهيمن على حركة الحياة.

وليس اعتلاؤه بالهيّن، ويحتاج رجالاً هم الرجال حقاً، وفي طبقات واسعة تنتشر على أرض العلوم والفنون، وفي الأسواق، وفي ذرى الجبال.

ولكن مع ذلك يتميز من هؤلاء الرجال نفر قليل هم الحلقة الأهم في السلسلة.

- **الأول**: هو الرجل الفذ الذي يقود، فإن هذه القيادة الواسعة لحركة الحياة من قبل مئات المبتكرين المبدعين أصحاب الأداء الجيد لا تغني عن وجود هذا الرأس الذي يمتاز بالشمول وعمق الإيمان بالله وبالقَدَر وبالقضية، وهو مقدام قوي الشخصية، يقول فيفعل، ويصمم فيثبت، ويدق صدره فيقتحم.

متنوع الثقافة، مرهف الإحساس، حين يرى الجمال يستأسر له،

ففيه من الشاعر والفنان خصال، لكنه رابط الجأش، فكأن له في قادة الحروب مثالاً.

وهو ليّن العريكة، في غير ما ضعف، عنيد قوي الإرادة، في غير ماتكبّر ويبوسة.

كريم، إذ يغلب غيره العدّ، متوكل، إذ يُقلق غيره المستقبل، حليم، إذ تَبقى في قلوب الآخرين الرواسب.

سائح يرى، ومُجالس يشافه، ومُطرق يفكر.

وُهِبَ له ذكاء وحياء.

طاف حول البروتون مع الإلكترون، وذَهَب بعيداً إلى المجرات وأجرام السماء، وتأمل ما بين هذين العالمين، فآمن بالقدر حق الإيمان، وعرف سر حركة الحياة حق المعرفة، وله استئناس برؤى الصالحين ومذاهب المتفرسين، مع حرص على إشارات الملهمين، واستبشار بالفأل الحسن.

فهو بذلك كله من صناعة الحياة على خبر، وله فيها سهم وقد جَعَلَته شدة يقينه بأن الحياة لا يصنعها إلا ألف صانع: ملتقى لهؤلاء الصناع الألف وألوف من ورائهم، يطيعونه ويوالونه عن قناعة ورضا واختيار، بما عرفوا من حرصه على جماعية الرأي والدور والأداء تبعاً ليقينه بجماعية صناعة الحياة فهم معه على تعاون

وحسن ظن وطيب علاقة وتقديم، وهو معهم على وفاء واحترام، وبه يتم السير الجامع والانتظام.

هذا الأول. وأما (البقية) فهم رجال قلة عصبة واحدة، يمثلون المجموعة العالية الفكر، المجتهدة المخططة الرقيبة، ذات التربية العميقة، والعلم الواسع، فهم فرسان الفوارس.

إن لمعة الفكر هي التي تقود العمل، والفكر المقلّد لايقود بل يشطح أو تصل حلوله متأخرة وناقصة، وإنما الفكر الاجتهادي الإبداعي هو الذي يقود ويدق باب المستقبل، وهذا الفكر الاجتهادي الإبداعي إنما يؤسسه وقوف مع آي القرآن الكريم، ولبث مع سيرة النبي ﷺ وقوله، وفحص لمذاهب المسلمين السالفين والمُحدَثين، ومعرفة بأخبار التاريخ والحضارات، واطّلاع على آفاق الفلسفات والتأملات العقلية، وجري مع خيالات الشعراء ونبرات البلغاء، ونظر في صفحات الجمال.

إن هذا الفكر المتقدم الاجتهادي لايقدمه سواد الدعاة وجمهورهم، وإن كان كل واحد منهم يعلم جانباً من ذلك أو جوانب ربما، كما أن القيادة لاتقدمه أيضاً، (وإنْ ظن الظان لأول وهلة أنها مهمة القيادة أن تقدم هذا الفكر)، أو يفترض فيمن يكون كذلك أن يكون قيادياً، وذلك لأن القيادة منشغلة بالإداريات وترهقها هموم منوعة، وأنها دائمة الملاحظة لساحة السياسة وترصدات العدو.

لكنها مهمة مجموعة ليس لها صنعة غير الفكر والحوار والقراءة والتأمل ولقاء الغير والرحيل إلى المؤتمرات واصطياد الخواطر وتأليفها ، وأحسب أن هذه المجموعة هي القيادة الثانية ، وهي ضمان التخطيط الحسن ، وليسوا هم لجنة التخطيط ، وهم ضمان التربية الحسنة ، وما هم أعضاء لجنة التربية ، وضمان الرؤية السياسية الواضحة والاحتياطات الأمنية الكافية والاستثمارات المالية الرابحة ، وليسوا هم رجال لجان السياسة والأمن والمال ، ولكنهم عصبة فكر فقط ، مهمتهم إتحاف القيادة واللجان بالاقتراحات وإثراء الخطط بأنواع الخيارات ، مع نظرات ناقدة ، وتحليلات تستقصي جذور المسائل ومقدماتها فتبرزها ، وحين تواجه الدعوة ما هو جديد من الأمور وطارئ طارف يعاونها هؤلاء بالقياس والاشتقاق والترجيح .

## حوار التخصيص في دار الندوة وسوق عكاظ

وترافق الحاجة إلى هؤلاء الرجال الحاجة إلى أسلوبين :

**الأول**: الخروج من التعميم إلى التخصيص ، في الفكر والمناهج والعمل ، فقد أدى التعميم وظيفته الأولية المرحلية بنجاح ، ولا أقول إنه كان دليل نقص ، بل أشاع وجمع وألهب ، ووازى مستوى الناس المدعوين وحاجتهم ، بل ولم يحسن جيل الداعين غيره ، واليوم تفتح أبواب جديدة أمام الدعوة وآفاق لابد من ولوجها والبلوغ إلى

الأقاصي، كما أن الدعاة قد نضجوا، وكل ذلك يتطلب هذا الميل إلى التخصيص، وليس يكفي اليوم أن نقول: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وإنما علينا أن نطرح حلولنا الجزئية لمشاكل الاقتصاد والسياسة وقضايا التربية والتنمية. وليس يصح أن نستمر في مناهج العواطف والحماسة، وإنما على منهجنا التشعب لإنتاج صناع الحياة. وعلى خطتنا أن تكون مجموعة خطط، لكل حقل وميدان خطته الاستراتيجية البعيدة المدى، والمتوسطة والقريبة (التعبوية).

الثاني: تكميل العمل النظامي التربوي الخلفي بأعمال أمامية مؤسسية، وإعطاء هذه المؤسسات دوراً أكبر مما مضى فإنها مدارس تعلّم الحياة وأسرارها، وشرفات تطل على ساحة الحياة، ومراصد، ومنافذ، وقنوات، ومسارب، ومصاعد، وجوامع، ومصانع. وانتبه إلى وصفي لها بالتكميل، فإني أعني ماأقول، فإن هناك مِن مستعجلة الدعاة من اشتط وتطرف في الحماسة للعمل المؤسسي وبالغ، فدعا في غمرة حماسته إلى إلغاء الصفوف الخلفية ومحاضن التربية، ولم يسأل نفسه: مَن يُنتج له جيلاً آخر للمؤسسات إن أراد وكان شطط آخرين قالوا بأن الدعوة يقودها أصحاب المؤسسات، وتغافلوا عن أتقياء أخفياء بالوراء، وما ثمّ جريرة بالخفاء، وإنما الجريرة في الذهول عن التكامل.

## ضحايا الاندفاعة الأولى لا يُلغون صواب الخطة

ومثل هذا الذهول والشطط والتغافل هو الذي ولّد جفلة لدى كثير من نبلاء الدعاة وسادتهم من هذا النمط الذي ندعوا إليه من الأساليب والخطط وطَرق أبواب صناعة الحياة وتحملهم على التشدد والبقاء على القديم قصص كثيرة من ضَعف بعَض الدعاة بعد تصدّيهم للظهور وحصول المكانة والجاه لهم داخل محيط الدعوة وخارجه، بحيث أصبح هؤلاء النبلاء يتخوفون أن يحل بإخوانهم الذين يبرزونهم إلى الحياة العامة لصناعة الحياة ما حَلّ بإخوان لهم من قبل من غرور وتكبّر وتفلّت واستقلالية، وما يصحب ذلك من لفظ خشن وبطر وترف ورقة في الدين، ربما.

ومع المتخوفين حق، ولكن هذه السلبيات لا تعالج بالحجر وفي اللبث داخل الأسوار القديمة تفويت مصالح وتأسيس وساوس، ولابد من التوكل واقتحام هذه الآفاق الجديدة وعدم القياس على هذه السوابق، وأن ظنوناً عديدة وتأويلات صحيحة تشجعنا على ذلك.

منها: أولاً: إن التوعية لم تكن كافية في تفهيم هذا النمط من العمل وتحليل آفاقه الخططية، والداعية قد يملك حماسة تقوده إلى صناعة الحياة ولكن يعوزه فهم كيفية الأداء ومكانة عمله من جوانب العمل الأخرى، فيتنكر، ويبدو منه الجفاء، وتزداد اليوم مصادر

التوعية الحركية ومعرفة فقه الدعوة، وفي ذلك ترويض للنفوس الجامحة، وتحجيم للخيالات الواهمة.

**ثانياً**: إن الدعوات تمر بمرحلة مراهقة كما هو الحال في الأفراد، فإنه إذا انتهى التأسيس: نشأ تفكير ذاتي غير متكلّف يفتش عن أبواب الانفتاح، وفي المرحلة الأولى من هذا التفتيش تكون هذه المراهقة، ومن صورها: الدخول دون تدرج في أبواب انفتاحية عديدة مرة واحدة، فتصعب الرقابة ويقل التوجيه القيادي. ومن صورها: ممارسة الانفتاح دون هذه التوعية التي نقول بها، فتكثر الأخطاء، فيكون التلاوم، (ويكون الانتصار للنفس وطلب الاستقلالية)، ومن صورها: تبدل القناعات ونقض الخطط بسرعة مع أول بوادر المصاعب، فيتولد قلق في الأداء وتبدل في اليد الماسكة بالمؤسسة، فينفر بعضهم.

**ثالثاً**: لم يكن الاختيار دقيقاً في كثير من الأحيان، فكأن التفاصح وكثرة ما يلوكه اللسان من اصطلاحات التطوير والتخطيط والسياسة كان هو شرط الانتقاء، وغفلت القيادات عن دعاة متواضعين أوفياء أكثر ذكاء وأرجح وزناً، بل ربما اعترفت بعض القيادات بأنها كانت تختار أجود الدعاة لميدان التربية الدعوية، وتزهد بمن هنالك ممن لا يصلح للتربية أو من الضعفاء فتهبهم إلى العمل العام، وبذلك تكون قد شجّعتهم من حيث لا تدري على التفلّت ومواقف الغرور وأعانت الشيطان عليهم.

**رابعاً**: كان الفرد بعد الفرد يبرز لميدان العمل العام، ومن شأن الفرد أن يستوحش لوحده إذا لم يجد الأنيس المرافق، فيضعف، بينما إذا برز سرب كامل كما ندعو الآن فإن الوحشة تزول ويكون الاستئناس، بل وتكون الرقابة أيضاً، بعضهم على بعض، فإن مَن لا يستحي من الله تعالى قد يستحي من الناس، وهذا معنى حيوي مطلوب أيضاً.

**خامساً**: إن كل ظاهرة سلبية تحتاج إلى تحليل ومعرفة لجذورها وأسبابها، وهذا مالا يأتي به إلا مؤتمر تربوي يشارك فيه أهل الرأي والخبرة الطويلة، وأحسب أنه تعقد في الأقطار التي تشكو تفلّت البعض مثل هذه المؤتمرات، ولو عرفت الأسباب لوضعت الحلول المناسبة، وما من داء إلا له دواء.

## بل هو الله سبحانه، لست أنا ولا أنت

ومع ذلك تبقى الموعظة لصناع الحياة واجبة، فإن الشيطان قريب من ابن آدم ويجري منه مجرى الدم، وقد يُزين للبعض ويجعله يُكثر أن يقول: أنا، أنا. ويقول: مَن السواد الأعظم؟ بل الخطط أنا وضعتها، والأعمال أنا نفذتها، والآراء انطلقت من قريحتي، والبلاغة سالت من لساني، وأنا صنعت الحياة، ويشهد لي محمد أحمد الراشد!

(بل أنا بريء من هذا المدعي، ولا أشهد له، وإنما أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأشهد أنه بفضل الله صال وجال، وهو الفقير الضعيف، ثم بفضل الدعاة وأموال الدعوة

ودعاية الدعوة، ولولا أن الدعاة زاملوه لاستوحش الطريق، وكل طبقات الدعاة لهم عليه فضل حتى الأمي منهم، بدعائهم له).

ومن أصل الإيمان أن يعتقد المرء: أن محبة العباد له واجتماع القلوب حوله لايؤسسها عمله هو ولسانه وبيانه، وإنما ذلك محض هبة من الله تعالى وتفضّل، يهب لمن يشاء قبولاً بين الناس، ويخفض أمر وسمعة من يشاء، بحسب مافي القلوب من نية وبذور خيرية أو فضولية، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ حين قال: (إن الله تعالى إذا أحب عبداً أمر ملائكته أن ينادوا في الناس أني قد أحببت فلاناً فأحبوه، فما يصبح أحد أو يمسي إلا وهو يحب ذلك العبد، وإن الله إذا أبغض عبداً أمر ملائكته أن ينادوا في الناس أني قد أبغضت فلاناً فابغضوه، فما يصبح أحد أو يمسي إلا وهو يبغض ذلك العبد)، كما قال عليه الصلاة السلام.

والمفروض أن يتعظ كل داعية بهذه الحقيقة، وأن يصلح مابينه وبين الجماعة ليصلح أمره مع الله، لينال المكانة بين الناس، كما أن في هذه الحقيقة كل التطمين للدعاة أن لا يخافوا من مشاكس يتحدى، وأن لا يحسبوا طويل حساب لمنخزل ينافس ويدعو لنفسه ويخذّل فإنه غير واصل إلى نتيجة بإذن الله، وسيبذل الجهد كل الجهد ويستعمل كل طاقاته وأمواله ثم يؤول إلى لاشيء، لافتقاده الملائكة الذين ينادون في الناس بحبه.

ونصيحة أقولها للقيادات : إن غرور بعض الدعاة إذ هم يصنعون الحياة وإذ هم يرون أنفسهم في مكان الوجاهة يجب أن لايمنعنا من المضي في هذه الخطة ، (لأن عملية صعود سُلّم التطور الحضاري والدعوي كفيلة بالغربلة) ، وسيأتي جيل أفقه منهم وأركز وأنضج وأوفى للجماعة وأعمق شكراً لله ، ويكون هؤلاء قد أدوا دورهم القَدَري الذي كتبه الله عليهم ، فإن في أصل سنة الحياة أن ندفع ضريبة التطور على شكل نفر يتساقطون ، وهؤلاء هم الضريبة ، وسيأتي الله بعدهم بقوم أعلم منهم وأظهر تواضعاً وأحرص على أجر اللبث في الصفوف الدعوية .

## المؤمن يصافح ويصالح

إن خطة صناعة الحياة خطة معظمها إيجاب ونفع ، ولكن المحنة التي فيها وجانب السلب والضرر يتمثل في احتمال غرور بعض صناع الحياة وتفرّدهم من بعد الانتماء وظنهم أنهم يقدرون أن يفعلوا ما يفعله انتماؤهم الجماعي ، وقد عرفتَ وجه وهمهم ونسيانهم أن الفضل كله بيد الله ، يعز من يشاء إذا رأى منه الوفاء ، ويصرف الناس عمن يشاء ويجعل أمره بائراً إذا رأى منه الجفاء ، وما عرف داعية هذا الميزان الإيماني القَدَري إلا ازداد التصاقاً بالجماعة ، وتواضع ، والتزم وتبرأ من ادعاء الحول والقوة ، وأيقن أن لاحول ولاقوة إلا بالله .

هذا هو السلب الأول.

وأما السلب الثاني (وما أحسب وجود ثالث): فهو جفلة الذي يتصل به الدعاة ويطلبون منه الولاء فإن الذي يقرأ هذا الكتاب ويعرف أننا نقيسه بقياس التابع الموالي الدائر في الفلك يكون أحد عنصرين: عنصر يقول: ولم لا؟ نعم أكون تابعاً بالحق، وعلى سنة الإيمان، والحياة الإسلامية كلها تعاون، ومن كان له فضل الأستاذيّة عليّ وتعليمي الأدب الشرعي فبحق يطلب أن أُواليه وأُوافقه وأُحب من يحبه وأستشيره في أموري وأتحرى له المصالح وأدفع عنه الضرر وأعينه باللسان والجهد والمال، وما أجده قد طلب مني عسفاً، وكما آكل من غرس يده اليوم سأغرس غداً ويأكل غيري من غرس يدي، ومازال الخير سَنداً يتواصل ويستمر، والجيل من الجيل يستلم الراية، والحمد لله الذي أتاح لي الارتواء، وجعل لي مكاناً في سند الرواية، وآمل أن يمنحني من بعد شرف السقاية.

وأما العنصر الآخر فيحيص متملصاً ويضجر، وتأخذه عزّة خادعة ونوبة شَمَم وأَنَفَة، فيشمخ ويقول: قد قلّلوا قدْري فجعلوني تابعاً، وأنا ابن جلا وطلاع الثنايا، وحفيد الأكرمين وسليل الشرفاء، وجدي فلان، وخالي علاّن، فلا والله ماتبعتهم ولا امنحهم هذا الولاء، بل أنا الأول المقدّم والحر المستقل.

ولنفسه ظلم هذا الحسيب، وقد اختار التسكّع يظنه الحرية فإنّا

ماجئنا ننازعه الشرف، وإنما نجيؤه مسلّمين مسالمين محيّين، ونطلب منه النزول إلى ساحة خدمة الإسلام نحن وإياه على أخوّة وسواء، فإن كان مثلنا في العلم والخبرة: فهو من صناع الحياة لاضير، وهو المحور والقطب والبؤرة. وإن كان دوننا في العلم والخبرة: فالعلمُ قائد، ولذي الخبرة إمرة، وماندعي في ذلك إرثاً من جد أجهر شرفاً من جده، ولكن الله قد حكم بين العباد، فمن قدّمه الشرع تقدم، وتضم المتقدم والمتأخر قافلة، والجميع رهط الإيمان، يتكافلون ويتناصرون.

## صناعة الحياة تجديد وإضافة.. ولاتنازع العُرف القديم

والمعنى الجديد الذي تحمله نظرية صناعة الحياة قد يسبب ظنوناً بعيدة لدى الدعاة، ويفجر الكثير من التساؤلات، ويتوهمون لزوم ما لايلزم، ووجوب تضييق واسع يسيحون في جنباته.

وليس كذلك الأمر، وأعرف الدعوة المتوارثة كلها صحيحة، وخطة الدعوة في الاتصال والاحتفال والتربية الأسرية صواب لابد من مواصلته وإمضائه والحرص عليه، (وإنما يأتي أسلوب صناعة الحياة مأتى التكميل والتحسين والتطوير)، بل هو التذكير بحقيقة دعوية كبيرة مازال الدعاة يتقبلونها لما كانت تأتيهم بالطريقة العفوية، ولطالما قاد الاجتهاد الشخصي بعض الدعاة إلى نصب أنفسهم صناعاً للحياة، فعرف الله صدق توجههم، وكان لهم تمكّن

وإبداع فقبلهم المجتمع الدعوي الخاص والمجتمع العام بصفتهم هذه قبولاً مسترسلاً هادئاً بلا ضوضاء، وللدعوة بالأمس واليوم أجيال من النبلاء بعدد وافر على هذه الصفة، وهم من أهل الصنعة بحق، من بين مجاهد وواعظ وشاعر وذي فكر، ومازدنا هنا على أن اكتشفنا ذلك ونطقنا بالترويج والتعميم وإبداء المساعدة القيادية في ذلك، كمثل خبير زراعي يلاحظ إذ هو في حقله التجريبي قوةً في خصائص نوع من البذور، فيحسنها ويستنبتها وينشرها.

• فمن الأسئلة التي تُثار: سؤال عن هذه الطريقة: هل هي إلغاء لدَور الجماعة، وتحويل الأمر على عاتق أنفار الصانعين مهما ازداد عددهم أو قلّ؟

والغرابة واضحة في هذا السؤال الذي سببه تحميل الكلام ما لا يحتمل، ولايغني عن وجود الجماعة بقيادتها وعلاقاتها شيء آخر، ولا يكون بعض أساليب الأداء هو البديل عنها، كلا، بل الجماعة حق، ووجودها واجب شرعي ومصلحي، ببراهين النصوص والعقل، وما طريقة صناعة الحياة إلا وسيلة لزيادة المقدرة الإنتاجية لدى الدعاة، ويظل دور الجماعة يتأكد في حقلين على الأخص: حقل تربية صانعي الحياة هؤلاء وتسهيل تنفيذهم لأدوارهم من خلال المناهج المتخصصة والحث والرقابة وإبراز الأستاذ القدوة في كل فن. وحقل السيطرة على الأداء المتنوع في الساحة الواسعة

وإحلال الانسجام فيه والتوافق وتركيزه في المكان أو الزمان ليُحدث أثره من خلال الزخم المجتمِع .

• ثم يثار سؤال : هل هذا توجّه ينفي أن تكون الدعوة جماهيرية ويجعلها جملة تجمهرات صغيرة وتجمعات عديدة ، كل صانع ومَن معه ؟

ولم يكن المقصود هذا ، مرة أخرى ، فإن المعايير والتدرجات المرحلية إذا سوّغت الصفة الجماهيرية فهي سائغة لا ننكرها ، ولكن في طريقة صناعة الحياة ربط بالولاء الواعي القوي الخاص الذي هو أقوى من الروابط العاطفية الحماسية القصيرة المدى التي يولدها العمل عادة ، ولابأس أن تكون هناك أساليب في عملنا تؤدي إلى هذا الولاء العام للجمهور لنا ، من حفلات ومسيرات ومخاطبات إعلامية ونبرات إثارة لاهبة ولكن هناك خط امتداد والتقاط خلفي أولي يمثله صناع الحياة ، ثم خط تركيز خلفي ثان تمثله التربية الأسرية ، ثم خط تطوير ثالث يمثله البناء التخصصي لصناع حياة جدد ينزلون إلى الميدان مرة أخرى صناعاً وقد كانوا قبل سنوات في سواد الجمهور ، فتكون الدورة الحياتية ، التي هي سُنّة المخلوقات ، تامة دائرة سائرة ، مبرهنة في النهاية على مابرهناه في البداية من تعلّق الظاهرة الدعوية بالظواهر الكونية القدرية ، وسبحان الله أولاً وآخراً .

• ويتساءلون: هل هذا إلغاء لدور التربية الإيمانية واللجوء إلى ربط الناس بنا من خلال المصالح والخدمات، بما يقدمه الطبيب أو المهندس أو التاجر؟

**والجواب**: كلا، فلسنا مثل الأحزاب الغربية في البلاد الرأسمالية التي تتسابق إلى كسب الناس من خلال تقديم الخدمات، وإن كانت خدمة الناس من الحق، وهي من فضائل الإيمان، وخير الناس أنفعهم للناس، ولكننا نميز معنى التمايز، وحبّنا وبغضنا هو في الله، والمسلم أخ لنا، والملحد نعاديه ونكبته، ونحتكم إلى الشرع إذعاناً لله تعالى وطاعة، ونغرس في الناس هذا المعنى من الامتثال والتسليم، ونضع القرآن فرقاناً بيننا وبين قومنا وحكامنا، والجبّار المتعجرف عندنا صغير في أدنى التضاؤل، والضعيف الموحد كبير في ذُرى التسامي، والله أكبر.

كل هذا عندنا واضح، ولكننا كدعاة مسلمين نرشح أنفسنا لقيادة الحياة بدل الفاسق والعاطل والخامل والخائن واللاهي والظالم، والإجادة المهنية التي حرصت عليها نظرية صناعة الحياة إنما هي لفتح خط التعامل مع الآخرين، وتُراد كوسيلة مبادأة، وهي مثل جهاز هاتف يرفع الداعية سمّاعته ويقول للآخر: آمن بالله وكن مسلماً وانتصر للمسلمين. فليس جهاز الهاتف غاية، ولا هو المنتهى، وما هو إلا آلة ووسيلة وسبب سماع ومواجهة وحوار، وعلى معدن الكلام وموضوعه التعويل، والله الهادي.

وكان (عبد الحميد) يوماً ما من الناشئة الذين معي، تغمره لذة البداية، فتأجج حماسه بعد درس شرحت فيه قول نوح عليه السلام: (رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً)، وأسف لأنه لا يستطيع الوصول إلى فتيان في الحيّ الذي يلي حيّه، فتفتق ذهنه عن وسيلة: أن صَنَعَ الحلوى التي نسميها (المكّاوية) وذهب يبيعها بثمن بخس لهؤلاء الفتية الذين رنا إليهم، فأصبح الخط بينه وبينهم سالكاً، وأصبح يشافههم متى شاء، ويبشرهم بالبشائر الدعوية، وصار لهم مُعلّماً وهو القرين.

والناس تنتظر منا الخدمة، وتظن فينا ظن الخير، وقد كُنت ذات صباح جالساً بديوان الإصلاح، فجاء شاب يافع قال لي: أبي وأمي يتشاجران كثيراً، حتى صار بيتنا جحيماً وأنا وأخوتي الصغار ضحية، فلعل الجمعية تصلح بينهما وتعظهما لنعرف معنى الحياة.

فقلت: يابني، نخشى أن نتدخل في خصوصيات الناس!

فقال: كلا، بل أنتم اسمكم جمعية (إصلاح)، وهذا أول معاني الإصلاح: أن تصلحوا بين الأزواج، وإن لم تصدّقوا اسمكم فماذا يا ترى تعملون؟

فأطرقت ملياً وقد أفحمني وحجّني، وقلت له: بل أنت الصادق، وفهمك الفطري هو الصحيح يا بني.

وأخذته إلى رئيس الجمعية، وقص عليه القصص.

وإن فهمنا لصناعة الحياة مشتق من مثل هذا المنطق الذي أحسنه هذا الفتى اللهفان بالبداهة .

• ويخشى آخرون أن يُخرج فن القصة صاحبه الذي يزمع صناعة الحياة فيكون قاصّاً كالذين ذمهم أحمد بن حنبل ، يحوم حول الكذب ، ويرتكب المبالغات ، وأن يمتلىء جوف شاعرنا صانع الحياة بالشعر ، ولئن يمتلئ جوفه قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً . وهكذا يستخرج لكل فن عيباً وسلباً ، ويستنتج أن هذه الخطة ذات خطر ، وستؤدي إلى أن يكون القرآن مهجوراً .

وهذه دروشة يابسة ، وهي شنشنة المحدودين كأن الدعوة إلى شيء تستلزم نقض غيره ، وليس هناك تكامل وفهم شامل ، والصحيح أن هذا الكتاب يورد خبراً من أخبار العمل الإسلامي ، ومائة خبر آخر هي في كتب مباركة لآخرين ، وتحلية أجر القرآن وتلاوته واجب أوفَته مواعظ الكثيرين ، وليس من شأن كل كاتب أن يلتزم في كتابه إيراد فهرست الإسلام والإيمان والإحسان كله ولا يدع منه شيئاً ، ولا أن يجعل صفحاته قاموساً ، وإنما حسبه أن يورد الفكرة الطارفة ، وأن يكمل النقص ، ومايزال البعض يعيش في وسوسة تجعله يدور بين الإفراط والتفريط ، فلا يخطر له معنى إلا استحضر نقيضه التام وطرفه المقابل ، كأن لا وَسَط في الأمور ولا اعتدال ولا حُسنى ، فما أن تطرب لشعر حتى يتهمك بهجر القرآن ،

وما أن تلجأ لمجاز حتى يحذرك التهويل ولا أن تطلب بعض دنانير حتى ينسبك إلى عقوق الثوري وفضيل، وكل هذا من نقص المنهجية في أسلوب الفهم والنقد والتقويم، ومن استيلاء الفوضى، والعجز عن إدراك الشمول.

• ويستفسرون: أهذه النظرية نقض لمبدأ القوة وأسلوب التغيير؟

ونكرر آخر الدواء الكي، والمظنون أن تعاظم الولاء والاستقصاء في جمعه عبر هذه الفنون المتنوعة لصناع الحياة سوف لا يبقي حاجةلمثل ذلك، وسيكون زخم هذا الولاء وحجمه العظيم عاصفاً، لكنه عصف الهدوء والسلام.

• ويسألون: أهذه هي الخطة الوحيدة في العمل العام؟

فنقول: كلا، وإنما هي شق، والشق الآخر المكمل المعادل يكمن في (منهجية الانفتاح)، فإن الَحياة يقودها قادتها وصناعها كما قلنا، فنصف هؤلاء الصناع تصنعهم هذه النظرية وتربيهم وتدفعهم إلى المزاحمة واحتلال مكان يمارسون منه التأثير، والنصف الآخر هم صناع وَضَعهم القَدَر في أماكنهم وفي الواجهات الاجتماعية وأماكن صناعة القرار، ولهم ذكاء ومهارات وفنون، وقد جمعوا من الولاء رصيداً ضخماً، وواجب منهجية الانفتاح أن تصل إلى الصالحين منهم وتتفاهم معهم، لتحوز صنّاعاً جاهزين يمنحونها ما جمعوا بمبادرتهم، من بين عالم وواعظ وشاعر وإعلامي وتاجر وسياسي

وباحث ومخترع وعميد عائلة وشيخ قبيلة ونبيل، فالمؤمن منهم يحس بالقرابة لابد، ويحن إلينا، فإن العرق دساس، والأشكال حلفاء، وهذه قصة أخرى مستقلة كاملة ذات أخبار وفصول وفروع، ليس هنا محل بسطها، ويكفينا الآن أن نعلم أنها تسير بموازاة صناعة الحياة، وأن الثنتين من خلفهما الخط الثالث الداخلي.

• ويقولون: لم نسمع بهذا من قبل، ولم ينفّذ؟

ونقول: شأن الأمور التطور، وليبلغ الشاهد الغائب، وتدوين هذا الكتاب جزء من الترويج لهذه المعاني، ومما لم يفطن له أكثر الناس أن عصر الصحوة هذا يشهد صحوة في القيادات التربوية كما شهد صحوة الشباب الصاعد، وأن هذه المرحلة تشهد ثورة في التخطيط والاستدراك على نقص الأمس، وقد بدأ ذلك يوم وُلد العمل العالمي، والطاقات الكامنة تزداد اليوم انطلاقاً، ولكن الأعمال الجبارة تحتاج أن ننتظرها سنوات لتنضج، ونحن نعاني أمراً حضارياً صعباً وليس عملاً هامشياً أو مجرد وصول سياسي، وما كان للدعوة إلا أن تمرّ بمراحل النضوج المتتابعة لتطل اليوم على عملية صناعة الحياة من موطن الوعي والاقتدار، والله القادر وهو للظالمين القاهر، وقد أذن الله تعالى للدعاة أن يشيع بينهم الابتسام من بعد الحزن، وشعارنا إنما هو التفاؤل ورجاء الخير وانتظار النصر، ولا أستثني من تطبيق نظرية صناعة الحياة أحداً، إذ تتيح هذه النظرية

بل أنا أرى أن من تمام تربية صانع الحياة لنفسه أن يكون كالغربيين في ممارسة أنواع الرياضة والتسلية، من المشي ولعب الكرة وركوب الزوارق، بل والطائرات الشراعية والبالونات إن استطاع وكان ميسوراً، وأن يصيد السمك ويتجول في الغابات، لأن هذه الممارسة تزيده نشاطاً وقوة بدنية ونفسية، وترفع معنويته وتنسيه همومه، لاكمثل المجالس المكررة التي تقتل النفس وتولّد الضجر.

وغايتي أن أقول: إن غايتنا بأمرنا الدعوي ضعيفة، ولابد من إتعاب النفس في ذلك، ولابد من بذل المزيد، ووضع حد لتمنيات الزوجات.

وقد كنتُ في الأيام الخوالي أُلاطف إخواني فأفتش على أحذيتهم!

ليس على نظافتها وصبغها ورونقها، كالتفتيش العسكري بل على استهلاكها وتقطّعها والغبار الذي عليها، وأقْلبها فأرى النعل، فمن كان أسفل حذائه متهرئاً تالفاً فهو الناجح وأَقول له: شاهدك معك: حذاؤك يشهد لك أنك تعمل وتغدو في مصالح الدعوة وتروح، وتطبق قاعدة: ((وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين))، وبكثرة حركتك تلفَ حذاؤك، فأنت المجتاز المرضي عندي.

قال (صباح): قد والله بعد عشرين سنة يأخذني تأنيب الضمير كلما رأيت حذائي لا غبار عليه، وأتذكر ذاك التفتيش!

فاختر لنفسك أخي أن تكون صباحاً، أو أن تنام حتى الضحى، ولكن يلزمك أن تعرف أن علامة التوفيق: الكد والتعب والسهر، ولذة الأحرار إنما يفجّرها البذل، ولو عَرَف المتجنب المنعزل مايغمر المتلفَ لنفسه في الله من نشوة وفرح غامر لزاحمه وسابَقَه ونافَسَه، ولكن فاقد الشيء لايعطيه، وقد يحرم المرءُ نفسَه اللذائذ جهلاً أو إذا اختل عنده الميزان وكان حسابُه غَلَطاً. . .

# عـــواصـــم

وإذ نحن على مشارف الانتهاء - وقد حصل لك تمييز الشبهات والأوهام وجواب التساؤلات والاعتراضات وعرفت الشروط - : يجدر أن ننبهك إلى جملة معان أساسية في العمل هي من الأهمية بمكان، وتبرز كشروط تعصمُ نظرية صناعة الحياة من الشطط، وتؤدي إلى استقامة العمل وحمايته من الضعفاء والمتسلقين والمتمشدقين.

فاعرف سدّد الله خطاك :

(١) أهمية الانتقاء وضرورته، وأن التوسع في طلب الولاء على طريقة صناعة الحياة، فالدعوة دار لها داخل وظاهر. فالظاهر يسع كل أمة محمد ﷺ، هم في عرصات الدعوة متى وفدوا وكانوا بما عندنا من الراغبين. نبذل لهم المحبة والخدمة والأخوّة بلا استثناء، ونرفق بهم ونحلم ونوسع الصدور. ولكن الداخل حَرَم، وهو مأوى الأشداء الثقات النبلاء الأمناء فقط، لأنه موطن اتخاذ القرار واختيار الخطة والأسرار، وأي تساهل في ذلك قد ينتج عنه

الانحراف، ولذلك لن يصل له إلا القديم الولاء، العابد المتواضع، العفيف اللسان، إذا آتاه الله من الذكاء والشجاعة مقداراً، ووهبه قوة الشخصية وجودة الصفات الفطرية.

(٢) وأهمية الخط الخلفي، حيث تربية الرجال، فإن المؤسسات والواجهات لا تلغيه كما يتوهم البعض، لأنها مجال عمل عام كأوسع ما يكون التعميم أحياناً، لا يكون فيها الانتقاء، ولا الشرط المتشدد، ويطرأ على عضويتها وأنماط عملها تأول لا حدود له، وترخّص، وتمرير لما هو خلاف الأصول والقياس. ومذهب العمل فيها لا تضبطه قواعد وثوابت وأعراف راسخة، بل الأذواق المحضة وموازنات المصالح الموسمية والانتخابية، وربما حتى الولاءات الشخصية، وكل لجنة إدارية جديدة تبدأ بإلغاء خطة وقرارات اللجنة التي سلفتها، فلا يكون استقرار العمل والاجتهاد، وإنما القلق والتبديل هو الغالب، وقد تحدث رياح عاتية بسبب الإفراط في الشورى ومعاني الديمقراطية وتدخّل الجدد فيما لا خبرة لهم به، أو تحدث ضغوط تحركها الأهواء، والخطة الدعوية ترضى بعمل الواجهات رغم كل هذه السلبيات باعتبارها بيئة أولية للتدريب وإنماء العواطف وتأسيس العلاقات، ولكنها لا ترضى بأن تتجاوز قدرها وحدودها، ولابد من وجود الصفوف الخلفية التربوية، حيث أهل النقاء والالتزام، وحيث الثوابت والاستقرار. بل وفي معظم الأحوال يجب استتار هذه الصفوف بسبب الضرورات، ومن أخطر

التوجهات ما يفكر به البعض من تحول الدعوة في الغرب إلى العلانية وصيرورتها حزباً، إذ أن القوانين الغربية تلزمها آنذاك بقبول كل راغب في الانتساب فتتميع الأمور وتختلط، كيف يصح ذلك في الغرب وقد أتى الدعاة من جميع البلاد واختلطت المصالح؟

وليس الحل في أن تعزل المقيم عن الطارئ، لأن الطارئين هم الأكثرية، وهم الأقرب في الأغلب إلى تحقيق الأوصاف فيهم لجودة تربيتهم المشرقية التي لم تنحت أيام الغرب منها بعد ولكل ظاهرة عامة شواذ لا تصلح للقياس وتبديل الميزان والحل الذي هو خير من ذلك كله: أن يبقى مصنع الرجال الخلفي، لا يمسه ترخص ولا إعلان ولا تبديل ولا تسهيل، وأن يبقى مصدراً للقرار، وتكون هناك واجهة من بعض المقيمين على شكل مؤسسة أو جمعية، ويكون في أجوائها من المرونة ما يؤهلها لتعاون إسلامي عام، ولا ضير في ذلك مادامت لا تعدو قَدْرها ولا تتحكم بمصائر الدعاة.

(٣) وأهمية القيادة في العمل، وأن جودة عمل صناع الحياة لا يلغي دورها، ولابد من طاعتها، والصدور عن أمرها، فإن صانع الحياة يبقى فرداً مهما أوتي من علم وقوة وفن، وهو بحاجة إلى أن يضم جهوده إلى جهود الآخرين ليتولد التوجه الإسلامي، وهذا الضم تلزمه مفاصل تنسيق وميادين اجتماع وتبادل خبرات وتكامل أداء، وكل ذلك إنما يمر عبر القيادة، وعنها يتوزع، فهي قلب العمل وأداة الانسجام والتناغم وطريق المناقلة وحزام الربط، فوق أنها

الرمز العاطفي الذي يملأ الحاجات النفسية للعاملين، وركن الاستناد الذي يسند المتعب ظهره إليه، ولا يستطيع الداعية من صناع الحياة الاستغناء عن جزء من ذلك فضلاً عن كله، وكل البراهين الشرعية والعقلية لوجوب العمل الجماعي تصدق على وجوب طاعتها أيضاً ووجوب بروزها وشخوصها وسيطرتها على العمل، وبعض ذلك من بعض، وكل نزعة إلى استقلالية المؤسسات ومجاميع العمل تعتبر توهيناً للعمل وثلماً لوحدته، وتفتح مجالاً واحتمالاً للشذوذ والإغراب، ومازالت سُنة التأمير تجلب البركة للدعوة، وترفأ الفتوق، وتستدرك على أنواع الخلل.

(٤) واعرف - بُوركتَ - أهمية الاسم الذي غدا عريقاً، وصار عَلَماً معروفاً واضحاً، وعنواناً لمناقب شتى وفضائل منوعة، والتصق به تاريخ من الشرف ناصع البياض، حتى تركزت في هذا الاسم المبارك قيمة معنوية كبيرة تعدل لوحدها قيمة العلوم والآداب والمعارف والفنون التي يستعملها صناع الحياة مجتمعين، ومن التفريط والتبديد والتبذير أن تزهد مجموعة بهذا الاسم وتذهل عن هذه الذخيرة فيه وتحاول انتحال عنوان جديد يبقى أشبه بالنكرة إلى عقود من السنين، والحريص يفخر بنسبه، ويلوذ بالشعار، ويَستظل بالراية، ويصدح بالهتاف. وأما المتبرئ المنكشف فتلفحه الشمس ربما، وتصعقه الصواعق.

(٥) وأهمية الانتساب العالمي ، فقد ذهب وولّى عهده القطريات والجزيئات والإقليميات إلى غير رجعة ، فلا جَزأرة ولاتعريق ولاسَوْدنة ولاتمصير ولاتكويت ولا أمركة ، وإنما هي الرحاب العالمية الشاملة فحسب .

وخَطَبنا متحمس يوم بدء العمل العالمي فقال : كان العالم ومازال يحكمه البيت الأبيض والكرملين ، واليوم يطرأ العمل العالمي كقسيم ثالث مكافئ .

فقلت له : قد استعجلت وبالغتَ أخي !

فقال : فالوكالة اليهودية ومجلس الكنائس العالمي يتقاسمان التأثير ، ونحن القوة الثالثة المقابلة إذن .

قلت : نعم ، الآن ، بل وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل إن لم ننزل أنفسنا هذه المنزلة وإن لم نفهم لحركتنا هذا الدور .

ومازالت هذه قناعتي وعقيدتي ، ومازال العمل العالمي يؤكد نفسه ويمدّد آفاقه ويفتح فتوحه ، ولايضيره أنه لم ينضج بعد ، فإن من شأن التوجهات العظيمة أن تحتاج لوقت وصبر ، وتلك ظاهرة حيوية مطّردة وحقيقة كونية متكررة ، والمجموعة التي تختص باجتهاد غير اجتهاد السواد الأعظم وتحاول إنفاذ اجتهادها ومذهبها من خلال التفرد والانخزال إنما تحكم على نفسها بالتضاؤل على المدى البعيد وإن راج أمرها لحين عند العاطفي ، وصانع الحياة الذي

لا يستند إلى هذه الهيبة العالمية إنما يفقد عاملاً من عوامل قوته وتأثيره.

(٦) وأهمية الفكر الإسلامي الملتزم الذي لا يتتبع الرخص يحرص عليها، ولا يتكون من تلفيق يستعير من كل مذهب أيسر أقواله وإفتاءاته، ليوافق الهمم الواطئة والنيات الباردة، فيكون فكراً مُمَزَّجاً ليس بالمحض، ومختلطاً ليس بالذي صفَته الصفاء، بل الواجب أن تسيطر علينا منهجية في الاجتهاد والاستلهام تحرص على التفسير المتواتر الراجح للآي، وعلى تتبع الحديث الصحيح وقول جمهور الفقهاء.

(٧) وأهمية فقه الدعوة التأصيلي، الذي يرجع بأعرافنا الدعوية وأنواع علاقاتنا الاجتماعية التربوية ومواقفنا إلى أصولها الشرعية وأسانيدها الفقهية، ويكشف قول الشافعي فيها، وأحمد، ورواية السرخسي، وسحنون، ومقارنات العز بن عبد السلام وابن القيم، فإن قول السلف وافر في هذه الأبواب، وفيه استقصاء وغَناء، ولم يحوجونا إلى تقليد الديمقراطيات والفلسفات والأساليب الحزبية المحدثة.

(٨) وأهمية التربية القيادية التي تأخذ بيد الجديد المُجيد في منهجية متدرجة متتابعة تُطوره وتنمي مواهبه وتروي له العلوم والتجارب والتاريخ والأسرار، حتى يستوي من صناع الحياة وتضعه في طريق

الإبداع الذاتي والإتيان بالطريف المناسب، والذي يود الاستغناء عن هذه المعونة التربوية ولا يريد الاتكاء عليها - تكبراً وأنفة - قد يطول طريقه حتى لو وصل، وقد ينكج ويعثر العثرات، والمتواضع المستعين في غنى عن ذلك، وكلما ازداد شكراً وانتساباً للوفاء: زاد خيره وتم له الكيل في إجزال ووصال، والنبيه يميز من جهة أخرى بين اثنين يدعيان تربيته وإنضاجه: بين ثري يرتاد له العلوم ويستنبط له منها أجود الرأي، ويروي له الأسانيد، ويخرج من جولته معه بحصيلة، وبين آخر يحاكي الجهد القيادي، فيسيح به في وديان العواطف ويلهيه بصعاب المسائل والاصطلاحات وغريب اللغة وشواذ الإفتاء ليفيق من بعد دهر على لا حصيلة ولا شيء ولا فوائد.

(٩) وأهمية استحضار معنى الإخلاص وتصحيح النية وتجريد القصد، ووعظ النفس بالتواضع والبساطة، والبراءة من الحسد وسخيمة القلب ومعنى السوء، وتعوّد شكر المحسن، من قرين مزامل وأستاذ معلم وأمير ناصح ومموّل باذل، واعتقاد أن الفضل كله بيد الله، والفرج بما يضيفه كل مؤمن إلى مسيرة الخير، والدعاء للآخرين، ورجاء الآخرة وما عند الله تعالى، وذلك لأن صناعة الجياة توصل إلى وجاهة وسمعة ربما، وصيت حسن واحتفال من الناس، فيكون العجب قريباً من القلب، والغرور ونسيان منّة المنّان.

(١٠) ثم أهمية الجيل القديم، وتقديم الرعيل الأول، والتبرك بالسابقين الذين كشفوا الدرب وارتادوا لنا وبكّروا تبكيراً، وكلنا

اليوم يرفل بما أنتجوه وسطروه، ويستمتع بالأعراف التي أسسوها ورسّخوها، وهم القدوات الفاضلة والنماذج النادرة والمعادن البراقة، حتى الأمي منهم ينتصب مدرسة في تعليم آداب الإيمان، وقد امتزجت مشاعر النبل بقلبه فغدا في فن الأخوّة والأخلاق أستاذاً، ثم ينبغ اليوم طارئ يسميهم بالمحاربين القدماء، ويطلب منهم الاعتزال وإفساح الطريق، ليصول ويجول بحرية. وهذا من الظلم للنفس والافتيات على حقوق الدعوة، فإن هؤلاء القدماء هم الذين يمنحون الحياة الدعوية لطائف معانيها، وبهم تتوطد أركان مبانيها، فاحترامهم واجب، والتبرك بهم فرصة، واستشارتهم غنيمة، والارتباط بهم طمأنينة.

إن هذه العشارية العاصمة تعود بكل واهم إلى أرض الحقيقة إذا فهم أهمية بنودها، وتعداد محاسن الإبداع والاجتهاد لا يعفي صانع الحياة من مراعاة هذه الشروط والانسجام معها مهما أتقن عمله وكان ماهراً فصيحاً.

فانطلق ثابت الخطو أخي، واصنع الحياة، وارفع بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، فإن المجال مُتاح، والناس تنتظرك، وقد أسرف الطواغيت في الهدم، ولن تَعْدُ أقدارهم ذلك، ليتميز ما تصنع أيادي المؤمنين.

ثم انطلق . . . . . على سنن الوفاء والولاء . . . .

# وبعد

فإنكم تسألون: ما هو الجديد في هذه النظرية إذن؟

فأقول: الجديد كثير وافر، يبني على الأصل القديم، توسعاً واشتقاقاً ومنحاً لبعض الأمور أهمية أكثر من ذي قبل.

• فمن الجديد فيها: منح العمل العام أهمية أكبر، والنزول إلى ساحة المجتمع وعموم الناس ما أمكن، ومحاولة ترك العزلة والانطواء في المجتمع، وطلب الولاء من الناس بدل الطاعة.

• ومنه: منح بعض الدعاة أصحاب القابليات الجيدة والثراء العلمي حرية أكبر في التحرك والاتصال بالآخرين، وتقليل مشاركتهم في تنفيذ الواجبات الدعوية اليومية ليتوفر لهم وقت أكثر يتصلون فيه بالناس ويقودونهم من خلال ولاء واعٍ وليس بالتجميع الجماهيري العاطفي.

• ومنه: الاعتراف بعلوم وفنون كان يظنها بعض الدعاة ترفاً وأنها لا تفيد ولا تثري المسيرة الدعوية، كالهندسة المعمارية، والخط، وفن القصة، والفلسفة، وعلم الآثار، والتصوير

الفوتوغرافي، وكذلك إعطاء أهمية أكبر من ذي قبل للأدب، والتاريخ، والاقتصاد، والإعلام، وعلوم الاجتماع.

• ومنه: تكثيف الدور القيادي في تربية العناصر الجيدة ليكونوا صناعاً للحياة من خلال منهجية شاملة ومدرسة قيادية، وإدخال العنصر الجمالي كعامل تربوي في هذه المنهجية، وكذا الثقافة العامة.

• ومنه: جعل المشاركة في البناء الحضاري مهمة دعوية أساسية.

• ومنه: رعاية وتشجيع كل جهد إسلامي وإن لم يكن صاحبه داعية.

• ومنه: محاولة الدعوة والدعاة، النزول إلى ساحة التجارة والصناعة والعقار وعموم أنواع الاستثمار.

• ومنه: التأصيل، والاقتراب من الفلسفة بالمقدار المسموح به شرعاً عبر رؤية وحدة المحركات الحياتية، ورصد المؤشرات الخَلقية والإيمانية الدالة على تماثل الموازين الحاكمة والمسيّرة للحياة البشرية والمخلوقات والكون، وفهم ضرورة تناسق الخطة والتوجهات الدعوية معها.

• ومنه: فهم دور الفارس الدعوي في تحريك مجموعة من الدعاة ضمن دائرة حركته، وأثر ذلك في علاج الفتور، وأن تهب الخطة الكثير من العناصر الجيدة لهذا العمل العام كما تهبهم للإدارة التنظيمية.

• ومنه: محاولة تنمية الإبداع والاجتهاد وجعل دورهما أكبر من ذي قبل، وتنمية ثقة الداعية بنفسه.

• ومنه: قطع تطلّع الدعاة لحيازة مراكز المسؤولية، والتوجه لإبداء أثر شخصي في الحياة الإسلامية انطلاقاً من التمكن العلمي أو الفني أو من أي منطلق إبداعي.

• ومنه: الدعوة إلى التخصيص في الفكر والمناهج والتخطيط والعمل، وإلى العمل المؤسسي.

• ومنه: قطع التخوف من فشل التجارب السابقة في هذا المجال والجفلة من انحراف بعض من حصل له جاه أو تعاليه على الجماعة، وبيان أن ذلك كان لأسباب لا تطّرد.

وعدا ذلك فقد حوى الكتاب موازيين فرعية كثيرة في فقه الدعوة مبثوثة في كل فصوله، وأخباراً علمية وتاريخية ربما لم يسمع بها بعض الدعاة من قبل، وطرائف وقصص، وحوى أيضاً مقاطع وصفية أدبية، كوصف الاجتهاد، والقائد الفذ، ومهمة الخطاط.

ومع ذلك فإن هذه المعاني لاتصل بك إلى خاتمة قصة صناعة الحياة، فإن الأمر يبقى أوسع وأكثر تفصيلاً، ولم نقصد أن يكون هذا الكتاب جامعاً محيطاً، وإنما أردناه كالزناد الذي تنطلق منه شرارة البحث والحوار بين الدعاة في مجالسهم ومؤتمراتهم، لعلهم يضعون النقاط على الحروف ويستقصون خبر هذه الصناعة الإيمانية

ويترجمونها إلى لمسات إضافية وتعديلية للخطط والأعراف الجماعية والمناهج، بل ولعموم طريقة الفهم والتلقّي وتقويم الناس والدعاة وتحليل الحوادث والظواهر واتخاذ القرار وتحديد المواقف والعلاقات.

إن فقه الدعوة يعتبر نقطة مهمة من نقاط انطلاق الدعوة الإسلامية إلى التمكين، وينبغي تكثيف دوره المنهجي وإثراء مباحثه وتلقين الدعاة موازينه وقواعده، وأظن أن (نظرية صناعة الحياة) ستؤدي دوراً في ذلك وتفتح باباً لخير آخر ننتظره من ذي تجربة، وقديمٍ عَرَكته الأيام، ودائبٍ ألْهمته المعاناة.

والله ولي المؤمنين، وناصر العاملين، ومعلِّم الصانعين.

والحمد لله رب العالمين....

وهذه هي وصيتي الشرعية السُنِّية إلى دعاة الإسلام أجمعين:

أوصيهم بتقوى الله تعالى، وبصناعة الحياة..

## إصدارات ذات صلة

- الإدارة الرشيدة
- أساليب التربية الإسلامية ١ – ٥
- الأسرة المسلمة
- الإنسان الفعال
- خطوة نحو التفكير القويم
- خمسة عوامل لحياة ناجحة
- الذكاء العاطفي ١ – ٤
- رياح التغيير
- قطوف إدارية
- مدرسة الأنبياء
- مفهوم التغيير
- من أجل التغيير

# مستخلص

يعرض نظرية صناعة الحيـاة، ويبـين أن الـولاء نـاموس الكـون، وهـو واحـد بعناصر عديدة، ويبين أن السـلوكيات البشـرية تمـاثل السـلوك الـذري، ويدعـو الجميـع إلى الـولاء لا الطاعـة، وإلى الدقـة في التعـامل، والسـرعة في الأداء، وأن النهاية يحتكرها المؤمن والمصلح والمظلوم، والله يرزق من يشاء قرائن تخبره بخبر الغد.

ويوضح لفريق البنـاء بركـة العلـم الشـرعي وأثـره الثقيـل، بحـروف ومنظـار ومشرط، وبصفحات جمال تهـدي نفحـات الاجتهـاد، بـين صريـر الفقـه ورنـة الذهب، ويبرز أن معادلة المال والعلم والجمال تجعلنا أكفاء.

ويخطط للدور القيـادي للدعـاة في تربيـة العنـاصر الجيـدة التـي تصنـع الحيـاة بمنهجية شاملة وثقافة عامة ورعاية وتشجيع كل جهد إسلامي، والاقـتراب مـن الفلسفة بالحدود المسموحة شرعاً، ورصـد المؤشـرات الخلقيـة والإيمانيـة، وفهـم ضرورة تناسق الخطـة مـع فهـم الداعيـة والتوجهـات الدعويـة معـاً، ويدعـو إلى التخصص في الفكر والمناهج والتخطيط والعمل المؤسسـي، وعـدم الخـوف مـن فشل التجارب السابقة أو الانحراف.

ويحتوي موازين فرعية كثيرة في فقه الدعوة مبثوثة في كـل فصولـه، وأخبـاراً علمية وتاريخية قد لا تكون معروفة للداعي من قبل، وطرائف وقصصاً ومقـاطع وصفية أدبية كوصف الاجتهاد والقائد الفذ، ومهمة الخطاط.

ويؤكد أن فقه الدعوة من أهم نقاط انطلاق الحركة الإسلامية إلى التمكـين، وينبغي تكثيف دوره المنهجي وإثراء مباحثه وتلقين الدعاة موازينه وقواعده.

# Summary

A book presenting life make and proving that loyalty is a cosmic tradition and a single with several elements. It states that human behaviors mimic the atomic behavior and invites all humans to loyalty rather than obedience, to elaborate treatment and speed in performance. It decides only a believer, a reformer and the wronged one assume exclusive possession of the conclusion, and Allah provides whoever He wills with presumptions which inform him of future news.

It makes clear for those who construct the blessing of the legal science and its practical effect with characters, a telescope and a lancet and with sheets of beauty which guide to the inspirations of judgment between jurisprudence and creaking and gold ringing and certifies that the equation of money, science and beauty make us competent.

It plans for callers' leading role in raising the true individuals who make life with exclusive methodology, general culture as well as taking care of and encouraging each Islamic effort and approaching philosophy within the limits legally permitted and observing the moral and fiducial signs, understanding the necessity of plan accordance with the caller's understanding and call channels altogether. It also calls to specialization in thought, methods, planning and institutional work as well as not to fear the failure of previous trials or deviation.

It involves numerous sub-balances in call jurisprudence spread in each chapter, scientific and historical news that a caller has had no knowledge of beforehand and drolleries, tales, descriptive literary pieces, such as describing judgment, the unique leader and the duty of the calligrapher.

It confirms the fact that the call jurisprudence represents the most important point for the Islamic movement to proceed toward solidarity. Therefore, its methodological role has to be intensified, its researches have to be enriched and teaching callers its standards and rules.



# LIFE MAKE

## Ṣinā‘at al-Ḥayāt

## Muḥammad Aḥmad al-Rāshid

هـذا الكتـاب يقـدّم نظريـة (صناعـة الحيـاة)؛ فيدعو إلى مراجعة الرصيـد، والجـري مـع الفـهم الجديد الذي بدأنا ندرك به العلاقات الاجتماعية الحيوية، وعوامـل التـأثير فيهـا، وكيفيـة تقلبهـا، واكتشاف أسرار الحياة.

ويمكـن لهـذه النظريـة البسيطة أن تـؤدي إلى تجديـد التخطيـط للدعـوة، وإعـادة توزيـع الواجبـات، وتقسـيم الأدوار، في أسـاليب مستحدثة وتفننٍّ وابتكار، لمحاولة اختصار الوقت وتقليل الجهد.

إنـه كتـاب ينظـر إلى الحيـاة وعلاقاتهـا مـن منظور جديد.

ISBN 1-59239-303-9

9 781592 393039